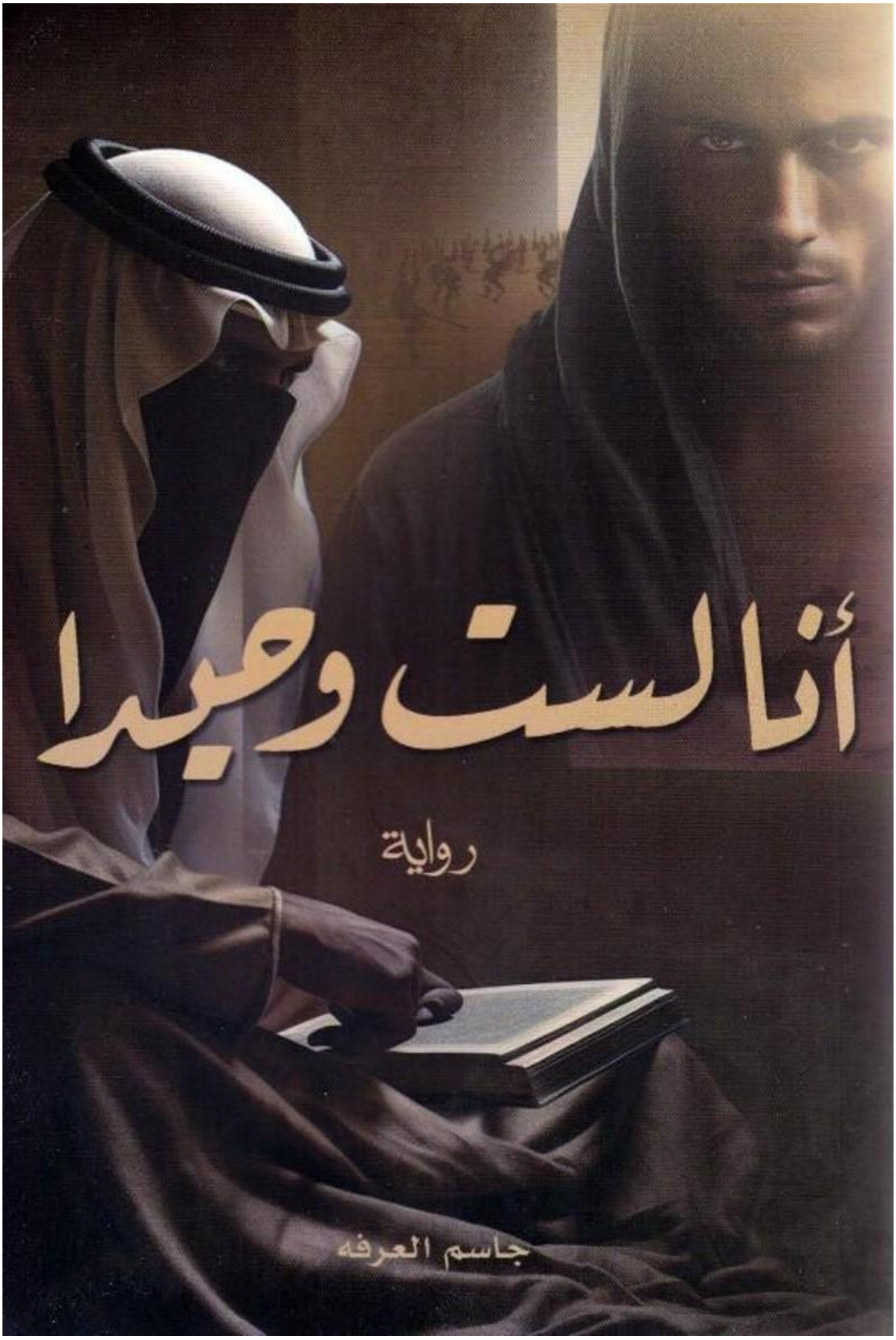
أنا لست وحيدا
رواية
جاسم العرفه

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

Mmr0521

.•*”””*• ***Kenny* •*”””*•.**

رواية أنا لست وحيدًا

الجزء الأول

جاسم العرفة

أتحسس خيالي وكل شيء حولي ناصع البياض، هو النور الذي يتغلغل داخل جلدي ويضيء الذاكرة لكل الأمور العالقة في داخلي حين باغتني الليل الأخير ليطوي صفحتي، عندما كان الناس يتجمعون أفواجاً، فتسمع أصداء الحزن تدق الأبواب الغياب مؤلم لكن أين أنا؟ وكيف صار للسراب جسد؟

لا أشعر بأطرافي رغم أنني أعرف تفاصيل المكان جيداً، قبضات الأبواب المخدات المعطرة، تعرق الجدران المطلية حديثاً وزفير صفحات الكتب الخاوية.

كل شيء مألوف لكنني غريب غريب لدرجة أنني لا أعرف كيف أقص حكايتي، أحاول أن ألتمس أول خيوط القصة لأسرد تفاصيلها وتظهر بعدها حقيقتي كل ما أعرفه هو أنني جاسم ومن هنا أبدأ قصتي:

كان الوقت فجراً ونور الشمس يحاول أن يتسلل من بين أغصان الليمون المتشابكة كأنها على موعد مع الصلاة عبر نافذة غرفتي؛ أذكر جلوسي مطلقاً جسدي السلام اللحظات أحزمة النور المتسللة

تحمل صوراً مصغرة لخيال أوراق الليمون، وكأنها تكتب لي قصة ما أو تريد تشتيت انتباهي عن هدوء المكان.

"في هذه اللحظات تراودك أفكار عديدة ولتملأ سكون هذا الوقت تبحث عما يمكن قراءته للحظة ما تعتقد أنك تقرأ فصلاً لرواية أو قصيدة غزلية تراقص ابتسامتك المشبعة ببعض التنهدات، ومحاولات الموازنة الأنفاس مع موسيقا تؤلفها عيناك الناعستان. نعم يمكن للحظة واحدة أن تهرب بك خارج إطار الوعي، خارج هذا العالم، كل ما تحتاجه هو استسلام تام للتفاصيل"

قلت لنفسي متابعاً التقاط الكلمات التي بدأت تتضح معالمها أكثر.

ورويداً رويداً أصبحت التفاصيل تتشكل على هيئة رؤيا أو يمكن أن أسميه حلم يقظة، لم أحاول أن أتملص من المشهد، بل صرت أراجع أفكاري وأتحسس أنفاسي ونبضات قلبي التي تخفق أسرع من المعتاد بدأت الصورة تتضح والتعرق يخط على وجهي لوحة باردة، وأدرك أنني داخل المشهد

وخارجه، كيف ذلك؟ لا أدري، كل ما أدركه أنني لم أكن بالعادة سوداوياً، بل كنت على أهبة الاستعداد دوماً للفرح والمعاشرة الأمل بكل تفاصيله ومغرياته، لكن ما ظهر لي الآن لم يكن بالأمر الهين على الإطلاق.

كنت أرى أشلاء تتمدد وتنتشر على امتداد الطريق المقابل لمنزلي، كنت أحاول جاهداً الخروج من الرؤيا، ولكن الجثث المتراكمة بعضها فوق بعض أضفت للمشهد الواضح بشكل جلي جسداً وأطرافاً تقيد حركتي وتمنعني من الهروب، ومع اختفاء جدار المنزل أصبحت الآن وحدي متابعاً للمشهد المرعب، فمي المنشد للأمل صار مخاطاً بتعاويذ لا أفهم فحواها والألم واقعي واقعي للغاية لدرجة أنني كنت أصرخ وصراخي تترجمه دقات قلبي وجسدي اللاهث واصطكاك عظامي.

جاسم، جاسم ما بك؟

أعادني الصوت إلى الغرفة غريباً منهكاً ألتمس النجاة من النور، أنا الذي لم يخطر في بالي ولو لثانية واحدة أن يكون النور قصاصاً.

عاد الصوت لمسامعي

اهدأ يا حبيبي إنه كابوس لعين.

قالت مها زوجتي التي كانت تمسك بيدي كأنها مرساة، ثم أنقذت فمي الجاف بكأس من الماء وعادت للنوم وكأنها هي الأخرى تعيش حلماً آخر.

بقيت وحدي تحت لحافي بعد أن هدأ المكان بعيون تختبئ من الوحش المتربص بي أردد بيني وبين نفسي: "هذا لم يكن حلماً ولا كابوساً، بل حقيقة خالصة، فالكابوس يمكن أن يؤلم روحك ويقلق نومك لكنني أشعر بتعب شديد تعب في روحي وفي جسدي."

كانت لحظات الصباح الأولى أحد أكثر الأوقات المحببة إلى قلبي خلال اليوم، فقد كانت وجهتي نحو التأمل والغرق في رشفة فنجان قهوة أعده بنفسي ليرافق لحظاتي الحلوة برفقة مها جميلتي، لكن هذا الصباح استشعرت رائحة نتنة في الجو على غير العادة.

تحاملت على خوفي وقمت لأفتح النوافذ بحذر لم أعهده أخشى الاقتراب وتذكر المشهد المؤلم فأغمضت عيني وسحبت مقابض النوافذ واحداً تلو

الآخر لدرجة أني كنت أمشي كالأعمى، أرتطم بالأشياء وأسقطها، وأتحسس الجدران المتقشرة للوصول للنافذة التالية، ولم أقو على فتح عيني إلا بعد انتهائي من هذه المهمة وشعوري بالهواء النقي يدخل إلى المنزل.

كنت أرتعش من النسمة تلو النسمة لكنني أصغي بانتباه شديد الحشرجة الهواء في أذني في أوراق الليمون المصفر الساقط على حافة النافذة.

كانت مها قد صحت قبلي وأعدت الفطور وبدأت تنادي بصوتها الدافئ جاسم الفطور جاهز، هيا قبل أن يبرد الشاي.

كأنها هي الأخرى نسيت أني أحب القهوة كيف تنسى؟ هل ما زلت عالقاً في تلك الرؤيا أم أن القهوة لم تكن سوى محض خيال ابتدعته أيضاً لأتمسك ببعض الواقع ؟

جاسم هل أنت بخير؟ قالت مها وهي تشد يدي متجهة بي إلى غرفة الطعام.

نعم يا حبيبتي أنا بخير، ولكنني شارد الذهن قليلاً هذا الصباح. أجبتها وتبعت خطواتها كالطفل أشد

بدوري على يدها الناعمة.

كان الفطور سريعاً، تلاه كأس ساخن من الشاي أشربه وأراقب الطريق الذي توقفت على جانبه سيارة القمامة لتبدأ بجمع جثث الصباح، هذا كل ما خطر بذهني فور رؤيتي لها، ثم شعرت بحرارة الكأس تحرق

أصابعي فارتشفت منه ما استطعت وهممت واقفاً.
كان هذا الفطور هادئاً، لم نتبادل الأحاديث كثيراً، هل نحن هكذا دائماً ؟ قبل أن أنهي الفكرة، تطعنني مها بنظراتها وكأنها تنتظر مني إجابة عما يحصل، وبعد هدنة من الترقب والانتظار أنتهز عبور سيارة مسرعة لأبدأ بشتمها فسرعتها الجنونية قد تودي بحياة أحد على الطريق.

أنت لست شارد الذهن فقط، بل لا يزال وجهك شاحباً منذ استيقاظك هذا الصباح وكأنك عالق في كابوس غريب.

تمتحن مها شرودي الغامض، ولكنني فعلاً لا أملك إي

إجابة على أسئلتها.

قلت لك أنا بخير لكن لدي بعض الأمور العالقة في العمل وأحاول تجميع أفكاري قبل الانطلاق لإنهائها. كان ذاك جواباً مخادعاً مختصراً لكنني لست على ما يرام، أعلم جيداً أنني لست على طبيعتي.

ارتديت لباسي التقليدي، كانت الساعة تشير تقريباً للثامنة والنصف وغادرت المنزل دون أن ألتفت ورائي، ولكنني شعرت بمراقبة مها لي من بعيد.

لم أعر التفاصيل انتباهاً وانطلقت متجاوزاً جانبي الطريق بأسرع ما استطعت وصلت لموقف الحافلة وجلست على المقعد المائل كقراراتي الأخيرة، وجلس شخص جانبي، كانت رائحته مألوفة، ولكن كيف ذلك؟

متى أصبحت أدرك ماهية الشخص من رائحته؟ لوهلة صرت أتخيل جلدي يغطيه الشعر مع مخالب تنمو من تحت أظافري بلونها الدموي القاني. هذا الصباح كتيب للعمل مغادرة المنزل بهذه الروح أشبه بانتشال الأشواك من صوف الخراف.

نعم إنه محمد زميلي في العمل، عرفته من صوته من تأففه الدائم وانزعاجه من مغادرة حصن زوجته فقد كان عريساً جديداً غارقاً في رتابة وروتين الزواج التقليدي، ولا علاقة لرائحته باكتشافي ماهيته.

لست وحشاً، أنا على ما يرام، لا لست وحشاً.

كنت أظن أنني أكلم نفسي لولا ضحكة محمد الساخرة واستغرابه لما أقول.

كنت أعتقد أن صباحي هو الأسوأ لكن حالتك يرثى لها.

عدت للنظر إلى يدي مرةً أخرى، لكنني لم أشاهد أي مخالب "أنا" جاسم، لست وحشاً" كنت أردد هذا القول وأستجمع ذاكرتي وقوتي لأعرف حقيقة ما يجري دون فائدة.

كانت الأشجار على امتداد الطريق تختلط بالأبنية المطلة على الجانبين تتشابك مع أحاديث الصباح المعتادة عن الطقس والعمل الذي لا ينتهي وتسلط المديرين.

كان كل واحد منا يحيك قصته الخاصة، لكنني كنت أبحث عن تجميع فصول قصتي، لا أدري لم كانت هذه الفكرة تتراود في ذهني وكأنني أعرف ما سيجري وأحاول تجميع القطع الناقصة فقط.

في المنزل، تنهي مها ترتيب بعض الأثاث وتجمع ورق الليمون الأصفر الساقط داخل الغرفة وترميه خارجاً، ثم تغلق النوافذ بإحكام وتتجه إلى المطبخ وأنا أعمل على مكتبي الخشبي القديم في شركة تستهلك كل وقتي كنت مسؤولاً عن المراسلات الإلكترونية والتواصل مع العملاء خلف الشاشة.

كنت سعيداً بهذا العمل الذي يناسب طبيعتي الخجول بعض الشيء، فأنا أقوى خلف الشاشة وشرش في التعاملات والمراسلات وإيقاع العملاء في شرك التعامل مع شركتي، فيأتون طواعية لإبرام صفقات وعقود الدعاية والإعلان دون أن يعلموا من هو الشخص المسؤول عن توريطهم، فبيع الكلام المنمق أصبحت تكلفته مرتفعة هذه الأيام.

كان المدير راضياً عن عملي لذلك لم يتجرأ أحد طوال سنواتي في الوظيفة على الاقتراب من منطقتي

المحظورة، فيما عدا محاولات محمد البائسة في إزعاجي، فتارة يرسل إيميلات وهمية للعملاء للإيقاع بي أو يحاول افتعال مزحة ساذجة لا أتقبلها في أغلب الاحيان، لكنه يعلم أنني أضعف من المواجهة وأنني دائماً أختار أن أتجاهل الأمر وحسب مما يزيد من ثقل مقالبه مرة تلو الأخرى.

بين أخذٍ ورد مع العملاء وأحاديث الزملاء التي لا تنتهي تدور عصا الوقت وينتهي النهار، الذي ولأول مرةٍ لم أتمن انتهاءه، هدوء مريب أصابني فرحت أتأمل الجميع بتحركاتهم وابتساماتهم الصفراء واتفاقاتهم المشحونة بالنفاق، وبخبرتي الطويلة أصبحت هذه المسرحية بفصولها المختلفة عبارة عن مراجعة وتذكير بالمشاهد لا أكثر.

انتبه إلى ألفاظك، إنني أراقبك!

قال وساعته الذهبية تلمع بوجهي ثم انصرف دون أن يسمح لي بأن أفكر بالرد.

لماذا يراقبني؟ يعلم جيداً أنني لا أطيقه، لكن هل كان هكذا دائماً؟ وهل من الممكن أنه يراقبني فقط لأنني لا أشاركه تعاليه وتبجحه؟

"لا أدري ماذا يقال في هذه المواقف فوجهي الآخر كان دائماً من خلف الشاشة بكل الأحوال إنه نرجسي سافل!"

اللعنة هل فكرت بصوت عال مرة أخرى دون أن أعلم؟ إنه عائد باتجاهي!

وضعت رأسي في الأرض لأتجاهله ثم أطفأت الكمبيوتر وغادرت المكان إلى حيث يتجمع الموظفون عائدين إلى منازلهم. وصلت الحافلة وغادرت معها إلى لمنزل، ولكنني نزلت قبل محطتي المعتادة لأتمشى قليلاً.

بدأ المساء بالهبوط وأنا أسمع أشجار الليمون التي يعزف على أغصانها هواء مثقل بذرات غبار تنقر على الأوراق الصفراء اليابسة، فيصبح الصوت كأنه فحيح أفعى جائعة تحاصر الحي الآمن.

أسرعت بالمشي كي لا أعير خيالي الجامح سبباً ليزيد معاناتي هذا اليوم.

من مسافة قريبة يظهر منزلي مظلماً، لم تشعل مها الضوء الخارجي بعد حتى أن المنزل من الداخل يبدو

مظلماً من النافذة المفتوحة المطلة على الشارع. لكن لم تركت النافذة هكذا والهواء الخريفي مشحون؟

وصلت للباب الذي لم يكن موصداً، للوهلة الأولى أجفلت لكن صوت مها في المطبخ أعاد لي الطمأنينة لم أرد أن أشعرها بخوفي عليها فأغلقت الباب ودخلت

ثم قلت بنبرة غاضبة:

لماذا تركت الباب مفتوحاً؟ ألم تلاحظي سوء الطقس؟ ألا تخشين أن يدخل أحد إلى المنزل بدون علمك؟

لقد رأيتك قادماً ففتحت الباب. ردت دون أن ترفع رأسها عن طاولة الطعام.

والنافذة؟ لم هي الأخرى مفتوحة؟

علت على وجهها نظرة استغراب ثم توجهت للغرفة المطلة على الشارع وقالت بتوتر ملحوظ إنها مغلقة هل تريد أن تفتعل مشكلة؟

تقلصت ثقتي وانخفض مستوى الهواء في صدري العارم وذهبت للتحقق فعلاً كانت مغلقة كيفك ذلك؟

رأيتها بأم عيني وأنا قادم تركتني مها مصعوقاً وعادت إلى المطبخ.

تفحصت النافذة وحاولت التحقق من جميع مفاصلها التي كانت سليمة، فالغبار والأوراق المنتشرة على حافة الزجاج الخلفي تؤكد أنها لم تفتح اليوم منذ الصباح.

هل كانت علاقتي بزوجتي على هذا النحو دائماً؟ ذاكرتي تخبرني أننا كنا على وفاق، وأعرف جيداً أننا زوجان سعيدان، لكن هذا اليوم غريب هذا اليوم غريب، ظللت أتمتم هذه الكلمات وأنا مستلق كالمغمى عليه على السرير.

كانت رائحة الطعام شهية لدرجة توجع القلب لكنني لم أكن على ما يرام، عادةً أجبر نفسي على الطعام حين أشعر بالتوعك كي يستطيع جسدي مقاومة المرض، أما اليوم فأنا لا أريد أن أقاوم، أريد

الاستسلام فقط لأي شيء يمكن أن ينهي هذا اليوم العجيب.

جاسم هل نمت؟

شعرت بمها وهي تجلس بجانبي وتمسح شعري بيدها وكأنها تنتظر مني إجابة على تصرفاتي المريبة كنت طفلاً مدللاً في تلك اللحظة لا أتمنى للوقت أن ينتهي. لا، لكنني لست بخير.

أجبت وشعرت بأن الحبل حول عنقي بدأ بالتراخي هل يمكن للاعتراف أن يكون دوائي ؟! ربما، ولكنني أفتقد الجرأة والحماسة في الوقت نفسه. ماذا بك؟ أشعر أنك ضائع منذ الصباح، لكنني تركتك لأني شعرت بحاجتك للقليل من الهدوء، وظننت أنك ستكون على ما يرام بحلول المساء، فقد عهدتك قوياً لا شيء يكسرك.

أعلم يا حبيبتي لكن هذا الصباح....

أخشى تذكر الرؤيا، وفي الوقت نفسه يجب أن أخفف عن صدري هذا العبء الثقيل.

ماذا حصل هذا الصباح؟ هل له علاقة بالكابوس البشع؟ تابعت مها وهي تنتظر مني رداً سريعاً.

هذا الصباح لم أكن أنا قلت لها ثم حاولت تشتيت الموقف بحجة القيام لتناول الطعام.

انتبهت مها لمحاولتي الفاشلة بالتهرب، لكنها أذكى من أن تصر على معرفة الإجابة وأنا أسهل من أن أختبئ خلف الحقيقة، وستكشفني المواقف البسيطة. تناولنا الطعام ودار حوار خفيف عن الطقس والأطفال وعن حاجتنا ليملأ بيتنا عنصر جديد يخرب هذا الجو الهادئ، لا أدري كيف تنتقل الأحاديث ونربط الطقس بالأطفال؛ ربما لأن الفصول هي ولادة من نوع آخر.

انتهت الليلة ودخلنا لننام بعد أن تحققت من إقفال جميع الأبواب والنوافذ وإطفاء الأنوار ثم استلقيت على سريري.

"نجوت اليوم، غداً سيكون نهاراً جميلاً".

قلت في سري وأدرت ظهري للنافذة المطلة على الشارع وأغمضت عيني.

الهواء منعش تهب نسمة ساحرة أسفل غطاء النوم وأستسلم لعذوبتها، لكن رائحة أوراق الليمون الرطبة

مزعجة تعكر صفو هذا الهواء العليل، فتحت عيني وقلبي بدأ بالخفقان بطريقة مرعبة، كل هذا الهواء وأشعر أنني أختنق النافذة مفتوحة! هناك ضوء في غرفة الجلوس ولا أستطيع التحرك مقيد على السرير، مها تغفو كأنها خارج هذه الفوضى؛ أريد أن أوقظها لكن يدي أقصر من أن أصل لها، بدت يداي كأنهما جناحان يكسوهما ريش أبيض، لكنهما مكسوران ومهشمان، كان الألم أسوأ من كابوس البارحة، اعتقدت أن الأمر انتهى لكن الأمور بدأت تأخذ مجرى آخر.

يهب هواء قوي يُسقط جدار المنزل فوق شجرة الليمون وأسمع صوت صراخ أغصانها كأن لها روحاً

تستجدي وتطلب الرحمة.

يا الله ماذا يحصل؟

صرخت بكل ما أوتيت من طاقة وقفزت من السرير لتصحو مها بعدها مذعورة لا تدري ما يجري.

وجهي أصفر، أتعرق بشدة وأهذي:

النافذة، النافذة!

لا تخف أنا معك يا حبيبي ليس هناك شيء، اهدأ، اهدأ. حاولت مها تخفيف وطأة ما يجري لتأخذ وقتها لاستيعاب الأمر.

النافذة عدت لتكرار الكلمة وأنا أشعر باختناق شديد.

نهضت مها وفتحت النافذة المغلقة جيداً وبدأ الهواء بالتدفق، وذهبت لتجلب كأس ماء.

كنت لا أزال أتعرق رغم أن الهواء الذي أصبح يدور

داخل الغرفة ساعد في تقليل توتري وتحسين تنفسي. بوجهها الخائف أعطتني كأس الماء وانتظرت حتى

شربته كاملاً لتقول:

إنه الكابوس ذاته أليس كذلك؟ أرجوك أخبرني. لماذا تصر على إخفاء ما يجري؟ إن نفسك تعذبك ولا ترضى مشاركتي وجعك!

لن تيأس مها قبل معرفة ما يحصل، لذلك يجب أن أستعيد توازني فلن تصدق أن ما أراه هو حقيقة

خالصة، وليست مجرد كوابيس بشعة.

نامي يا عزيزتي لا يوجد ما يشغل البال، ضغط

العمل كبير لا أكثر.

إن الأمر يتكرر معك فهل تريدني ألا أبالغ ؟ افسح المجال لقلبك ليتحدث وليرتاح أتمنى لو كان كابوساً، هذا كل ما أستطيع إخبارك به.

خشيت أن أعود للنوم قبل طلوع الشمس فاختبأت تحت غطائي بحجة النوم ولكنني بقيت صاحياً حتى قدوم الصباح.

كانت عيناي متورمتين من التعب، وجهي شاحب وبلعومي جاف؛ فقد قضيت الليلة أناجي الله ليخفف عبء ما يجري.

خرجت من السرير، وأخذت حماماً بارداً قرأت عن منافعه في بعض المواقع الإلكترونية لتخفيف التوتر وأيقظت حركتي مها التي كانت هي الأخرى تعاني من الليلة الفائتة وكأنها لم تنم أيضاً، لم أرد التحدث بالأمر وهي أيضاً، بالرغم من أن تجاهلنا كان مصطنعاً.

أخذت فطوراً سريعاً وغادرت المنزل وهذه المرة لم أنظر للخلف، لم يعنني وقوف مها خلفي أو شحوب النافذة المغلقة ولا الزجاج المغبر، قطفت في طريقي بعض أوراق الليمون وفركتها بيدي ثم أخذت بتنشق رائحتها، لا أريد أن أشم شيئاً آخر مثل البارحة، حاولت التركيز على أمر واحد يشتت أفكاري. وصلت إلى موقف الحافلة باكراً حيث لم يصل أي أحد بعد، رائحة ورق الليمون نفاذة، تقتحم جلدة الذاكرة وتسمم الوقت ليصاب بشلل مؤقت، ومضى الوقت ولم يصل أحد مع أن ساعتي تشير للثامنة

والربع، وما زالت الدقائق تنزف.

سمعت وقع خطوات قادمة لكني لم أرفع رأسي ولم أتكهن الرائحة.

اليوم عطلة. قالت لي باستنكار ثم استدارت عائدة. تباً لقد كانت مها بأي موقف محرج وضعت نفسي؟ إنني أشعر بالخجل. لم أتجرأ على النهوض والمواجهة

فقد كنت أرتدي ثياب العمل المعتادة، ولا أستطيع

التحجج بأنني خرجت لتنشق الهواء فقط. اليوم عطلة وأنا أتابع الادعاء أنني بخير، أحاول التعايش مع

رؤيا تثقل كاهلي، وتمنيت في هذه اللحظة لو أنني أستطيع الاختفاء.

مضى الوقت الغبار يلفح وجهي المكسور وأنا أعاند كبريائي وأسلط الضوء على الموقف المخجل، ثم أبدأ بتخيل المشهد عند عودتي.

ربما أدخل المنزل دون أن أنبس ببنت شفة وأنسل إلى غرفتي لأتجنب المواجهة حتى تهدأ الأمور وأقرر كيف سأبدأ بالحديث، وربما أدخل وتكون مها على أهبة الانتظار للمعاتبة فتحتدم الأمور بيننا وأضطر لتأنيبها وتأنيب نفسي لاحقاً على ما اقترفت وأندم، لكن الندم سيكون هشاً فهذه الأمور لا تشفى بسهولة وستحفر في القلب جرحاً عميقاً، وربما أذهب لمعانقتها دون أن أتلفظ بأي حرف، فنهدأ نحن الاثنان معاً وأكتفي بالحديث عن الكوابيس اللعينة.

كانت أغلب الحوارات تفضي بانكسار شيء ما، تمالكت نفسي قدر ما استطعت واتجهت صوب المنزل فتحت الباب كانت مها تتحدث على الهاتف وتبدو مشغولة ونظراتها تلاحق اقتناصي الفرصة

الهروب من المواجهة والدخول إلى الغرفة، لقد كنت أعرف أن أحد هذه الحوارات سينجح هكذا هي الحياة بروتينها ومللها.

اسمه الشيخ عبد الله!

استوقفني كلامها، فاسترسلت بالحديث: رجل تقي يخاف الله ويساعد الجميع.

وما دخلي؟! قلت لها مستغرباً، فأنا رجل متدين أعرف الله وأعرف نفسي جيداً حيث لم أتخط أي حدود لا قدر الله.

ربما تفتح قلبك له وتحدثه عن كوابيسك.

انتفضت بوجهها قبل أن تنهي كلامها: لم تريدين افتعال مشكلة؟ قلت لك إني بخير وإنها مجرد ضغوط في العمل، ولكنها تتكرر.. وأنا قلقة عليك.

حاولت تمالك نفسها والحفاظ على نبرة هادئة وبدوري حبست أنفاسي قليلاً كي أهدأ.

- انظري لي جيداً، أنا بخير وأعدك إن زاد الأمر على حده سأقابل ذلك الشيخ.

لا أظنها صدقت حديثي لكن لا بد لي من المراوغة.

ما رأيك أن تأخذ إجازة من العمل لترتاح قليلاً؟ كانت تلك فكرة جيدة، لكن لمن أترك الوحش القابع خلف الشاشة؟ سيستغل الجميع غيابي ويبدؤون في التسلل لمكتبي للانتقام، سيقوم محمد بكتابة إيميلات وهمية للعملاء يخبرهم بأنني جبان وهارب، سيعطيهم اسمي الكامل، وسأكشف للناس علانية وألاحق وأهدد على ما اقترفت، لا يمكن أن يحصل هذا الأمر، لا يمكن أن أفسح المجال لمحمد بكشف هويتي.

سيأتي أيضاً الموظف المتسلط صاحب الساعة الذهبية ويرش عطره داخل مكتبي كعلامة استيلاء

على المكان، ستملأ ضحكته المصطنعة منطقتي دون أن يستطيع أحد رده عن تسلطه.

بدأ الدم يغلي داخل عروقي من الغضب، كيف يمكن أن أدع كل هذا يحصل؟!

ربما يضطر مديري الطيب الذي وضع ثقته بي لجلب موظف بديل لي مؤقتاً، قد يكون هذا البديل مدسوساً من مكان آخر لتدمير سمعة الشركة.

"خسئت أيها العميل القذر"

قلت في سري وتنفسي لا يزال مضطرباً للغاية مع ضحكة تدل على ثقتي بأهميتي.

موظفة الاستقبال الهادئة التي يبدو سخطها واضحاً على أصحاب السلطة لن يردعها شيء عن توريطي في قضية ضد أصحاب القرار، لا تستطيع أن تفعلها بنفسها فهي تتملق الناس وتختبئ خلف مساحيق تجميلها وستنكشف فوراً مع أول قطرة عرق تسيل على وجهها حين تحاصر بالأسئلة.

لا يمكن أن آخذ إجازة، ستنهار الشركة وأنهار معها.

قلت لزوجتي التي لم تستطع فهم المقصود، لكنها أصرت على التفكير بالأمر بحجة أنني بحاجة لهذه الإجازة.

أرجو أن تعيد التفكير على الأقل إن تكررت هذه الكوابيس.

لا تقلقي سأفكر بالأمر بالتأكيد.

ثم حاولت تخفيف التوتر فبدأت بإلقاء نكت عن خروجي صباحاً للعمل وأتخيل أحدهم كان خارجاً للرياضة أو لقضاء أي عمل صباحي، حيث سينظر إلى

هذا المهووس الذي جلس ينتظر الحافلة في يوم عطلة.

أصبح الجو مرحاً بعد سلسلة الانكسارات الصباحية فاقترحت على مها الخروج في نزهة لأحد الأماكن المرتفعة الهادئة المطلة على الحي، ووافقت.

ينتظر الناس في هذه الأوقات الخريفية يوم العطلة للبقاء داخل المنزل والتمدد دون القيام بأي عمل فيمشي الوقت كثيباً ببطء، لكننا خرجنا إلى المكان المنشود وكان الطريق هادئاً مع بعض القطط المنتشرة على الأرصفة التي تحاول تعزيز وجودها الغازي في الحي، كان أغلبها لعائلات منهم من كان يتصنع الرقي ويحاول حشر نفسه غصباً في الطبقات العليا في المجتمع ثم تنهار حساباته المصرفية بعد فترة لارتفاع تكلفة طعام قطته المعتادة على أنواع محددة من الطعام الأجنبي، ومنهم من اضطر لشراء قطة ليقدمها لطفله المدلل بالرغم من أنه يكره الحيوانات، لذلك تراهم بعد فترة يطلقون القطط في الشارع لتعكر صفو مجتمع الحي الهادئ فتتمرغ في الأوراق الساقطة من الأشجار، وتنتهك حرمة أكياس

القمامة التي تجعل عامل النظافة يشتم من رماها ومزقها كل صباح.

هذا مكان مناسب للجلوس.

اختارت مها مكاناً يطل على أربع أشجار نخيل تصطف على شكل نصف دائرة مظللة المقعد الخشبي الأزرق المطلي حديثاً ليعطي للروح مساحة فضاء شاسع تساعد على التأمل.

غارقين في مساحتنا الضيقة كنا على أهبة الاستعداد للإفصاح عما يجول بخاطرنا، وكان من المفترض أن أنتظر مها لتبادر بالحديث فأجيب عن كل تساؤلاتها، لكنها هادئة للغاية تضع رأسها على كتفي وتكتفي بالتنفس البطيء.

بدأ ذلك منذ يومين كنت أعتقد أنه مجرد كابوس لكنني كنت شاهداً على الكثير من التفاصيل، لدرجة أني لم أجرؤ على العودة للنوم.

تابعت حديثي غارقاً في التفاصيل كي أعيد حياكة

الرؤيا بالشكل الأمثل حتى لا أفقد أي جزء منها.

لم تكن نيتي أن أدخل مها في رعب المشهد، لكنني أردت أن أعطيها لمحة عما يسبب لي كل هذا التوتر:

كان الطريق مليئاً بالدماء والجثث التي لا أدري مصدرها، كنت أشعر بألمها قبل الموت، أشعر برائحة خوفها وتعرقها.

شعرت بالبرد وأنا أتكلم فرحت أرتجف وكأن تعويذة ألقيت علي منعتني من الحراك ومتابعة الحديث،

شعرت بيد مها تشد يدي وكأنها تريد أن تشعرني أنها معي دون أن تقطع سلسلة أفكاري.

كنت أعتقد أن شجرة الليمون حية وكأنها وحش يريد الانقضاض على جسدي الملعون، وأحسست بيدك وهي تسحبني من الرؤيا لذلك ما زلت مصراً على أن ذلك لم يكن بكابوس.

وجهت الكلام لها وأنا أربت على يدها كي لا تستسلم للمشهد المرعب وتعيش تفاصيل خوفي حاولت الهروب من المنزل قدر الإمكان لكن دون جدوى، فقد أصبحت رؤيتي للأمور مختلفة، كل التفاصيل كانت مخيفة جداً وجعلت نفسي أغرق فيها دون أن أدرك ذلك.

وتكرر الأمر لليوم الثاني على التوالي. قالت لي دون أن تحرك ساكناً.

المشهد اختلف لكن الخوف ذاته، لا أعلم أن كنت أملك الجرأة على النوم الليلة.

لاحظت أنها تحاول إخفاء خوفها، وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت: أنا بجانبك يا حبيبي.. لا تجزم أن الكابوسسيتكرر

اليوم، ولا داعي لتوقع الأسوأ.

قلت لك إنه ليس كابوساً .. بل رؤيا!

فنهضت من مكانها ونفضت عنها كل ذلك الهدوء وقالت بانفعال لم تستطع إخفاءه أعتقد أنك تبالغ لا أكثر!

أتمنى أن تكوني على حق فقد أرهقني التفكير حقاً. مر الوقت بسرعة ونحن مأخوذان بالتكهنات وتخيل السيناريوهات الأفضل كي نبعد عنا أي أفكار سوداوية، ثم بدأت الرياح المحملة بالغبار تشتد فنهضنا عائدين إلى المنزل.

شعرت أن أحداً ما كان يراقبني فالتفت للوراء لكن لم أر شيئاً، بل شممت رائحة غريبة فقط، أخذت نفساً عميقاً وشعرت بثقل صدري وكأنني أتنفس مجبراً لكن وجود مها بجانبي خفف وطأة الأمر، فحاولت توجيه

حواسي كلها نحوها مأخوذاً بصفاء بشرتها واتساع عينيها وقوة أنوثتها.

وأخيراً جاء المساء يرمي بثقله على كاهلي، جلست أتصفح الإنترنت لأضيع الوقت لعل الصباح يأتي سريعاً، اهتماماتي قليلة وأحدها هو الطقس، لذلك قررت إبقاء نفسي مشغولاً بحركة الغيوم والأمطار والحرارة والحرائق حول العالم، كانت تذهلني حقيقة وجود مناطق خصبة تفيض بالماء العذب كأنها قصص هاربة من الخيال، ووجود جحيم على الأرض لا يرحم البشر ولا الصخر، جميعها قسمة من الله وتقديرات لا يمكن لي أنا العبد الفقير تأويلها، لأنه وبلحظة واحدة يمكن لفيضان أن يجعل ذلك الفردوس جحيماً لأهله ويُغرق كل ما يقف في طريقه، ويمكن لفيضان آخر أن يحيي مناطق تصحرت منذ سنين. هذه المفارقة تقدم لي متعة رهيبة لا أجدها في متابعة الأخبار السياسية وأخبار الموضة والرياضة وغيرها من الأمور التي لا تثير اهتمامي، في حين تهتم زوجتي العزيزة بها وتعتني بإطلالتها وأناقتها رغم أنها لا ترى سواي في غالب الأوقات.

هذا مخز!

قالت مها وهي تعض على شفتها خلال مشاهدتها لأحد الفيديوهات.

تخيل أنهم يصطفون لشراء سيارة حديثة وبالمقابل

هناك أناس يعملون بجد ليتمكنوا من شراء الطعام.

مددت رأسي لأشاهد نوع هذا الإغراء قائلاً: ليس ذنبهم أنهم ولدوا أغنياء.

ذنب من إذاً؟

إنه ذنب الأهل فهي ثقافات متوارثة، ولو قدر للشخص ذاته الذي يزاحم على شراء السيارة الفارهة أن يشرح له أهله منذ طفولته الحسرة التي يشعر بها الفقير حين يشاهد مظاهر البذخ الطائش الذي لا يقدم أي منفعة، ورد فعل الناس الذين لا يملكون ثمن الطعام على تباهيه ما كان أقدم على أفعال كهذه، بل وأغلقت الشركات أبوابها أمام هذه المسرحيات الوضيعة.

تابعت مها التصفح وكأن الرد لم يعجبها. تسمرت عيناي للحظة على النافذة وأصابني الجمود، هناك أحد ما ينظر من الخارج، لم أستطع أن أمنع نفسي من الجري خلفه.

- قف أيها الخسيس قف!

انطلقت للخارج بسرعة مصطدماً بكرسي كان بجانب الباب الشارع فارغ كالعادة، لمحت ضوء سيارة بعيدة ولا أحد يهرب مسرعاً أو حتى يمشي، توجهت للنافذة وبحثت جيداً حولها وبين أغصان الليمون المتدلية، ولم أجد أي شخص، لم أجد حتى قطة لأواسي نفسي بها وأتخلص من الصوت الذي ينخر رأسي قائلاً: "لقد جننت".

ماذا هناك؟

تساءلت مها عن سبب خروجي بهذا الشكل الهستيري وقالت: إنها المرة الأولى التي تنفعل فيها إلى هذه الدرجة.

لوهلة استغربت كلامها، ولكن بعد ثوان من التفكير وجدت أنها على حق، فأنا حذر جداً في هذه المواقف

وخروجي خلف أحد ما بهذه الطريقة لا يشبهني أبداً، فحاولت البحث عن تبرير مقنع.

لا أدري، لقد وجدت نفسي خارج المنزل خلال

لحظة، كما أن الوجه الذي رأيته لم يكن مخيفاً.

لكنك لم تجده.

أعلم ذلك لكن أقسم أنني شعرت بوجوده.. أو بالأحرى شعرت به.

شعرت به؟

نعم، شعرت وكأنني أعرفه، لا أستطيع وصف ذلك

لكنني شعرت بأنه أضعف مني.

لا أستطيع فهمك.. دعنا ندخل.

وقفت في الخارج قليلاً أحاول ملء رئتي بالهواء النقي، ثم هممت بالدخول، وقبل أن أصل إلى الباب شدني ضوء سيارة قريبة، ولاحظت وجود خيالات باللون الأسود داخلها.

"ربما انعكاس الضوء هو السبب"

قلت لنفسي ودخلت بعد أن تيقنت من إغلاق الباب جيداً ووضعت الكرسي الذي أوقعته خلفه لأستشعر أي محاولة لفتح الباب إن قرر ذلك الوجه الغامض اقتحام المنزل، ثم أغلقت جميع النوافذ برغم حرارة الجو.

سأسهر قليلاً وحدي، ثم أخلد للنوم.

قلت لمها بعد أن استسلمت للتعب، وجلست أراقب النافذة، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ يساورني الشك وسرحت بخيالي، فنهضت من مكاني في جولة أخرى داخل المنزل وتفقدت جميع النوافذ والأبواب. من خلف الزجاج كانت الحياة ساكنة، بعض القطط تموء هنا وهناك وإحداها تتسلق جدار حديقة المنزل المقابل باحثةً عما يشبع فضولها من طعام مرمي هناك وهناك أو معركة تفتعلها قصداً لإزعاج السكان النائمين بسلام.

عدت للسرير محاولاً النوم عدة مرات دون فائدة، لم يطاوعني النعاس، والقلق يحوم فوق رأسي فأخشى أن يسقط هائماً ويجفل محاولاتي الفاشلة للنوم، الذي استطاع أن يأخذني على حين غرة، لم أدرك ذلك إلا حين سمعت صوت مها الخائف يوقظني جاسم.. جاسم استيقظ أرجوك استيقظ.

حاولت استيعاب الأمر في البداية لكن عيني كانتا تؤلمانني بشدة.

ماذا .. ماذا هناك؟

تابعت حديثي دون أن أدرك حقيقة ما يحصل: الألم شديد جداً، أحضري لي بعض الماء فهناك شيء داخل عيني، أسرعي رجاء.

ركضت مها إلى المطبخ وأحضرت منشفة مبللة بالماء وأنا أتلوى على السرير كالأفعى المصابة، وبدأت بترطيب عيني كنت أشعر أنهما أرض يابسة أصابها الجفاف والتشقق، حاولت جاهداً إغلاقهما لكن الجفاف صعب حركة جفوني، احتراق فظيع يصيبني وألم لا يحتمل، لا أعلم ماذا جرى الليلة فقد كنت على الأغلب نائماً ولم تظهر لي أي رؤيا تجعل صباحي مؤلماً لهذا الحد، حاولت تذكر ما جرى دون فائدة فالوجع عظيم ولا أستطيع التفكير بأي شيء آخر الآن سوى الصراخ، الصراخ فقط.

سمعت صوت مها الناعم وهي تتحدث بلهفة إلى أحد الأطباء، وحاولت النهوض من مكاني لأرى وجهي لكنني سقطت على الأرض مغمى علي.

هل كان يشكو الليلة الفائتة من أي ألم؟ سمعت صوت الطبيب يحدث مها وأنا أحاول استعادة وعيي،

وشعرت بيده تضمد رأسي الذي يبدو أنه اصطدم بالأرض ونزف بعد سقوطي على الأرجح.

هذه بعض المهدئات بالإضافة لقطرة عينية، وحاولي الالتزام بالتعليمات التي سأرفقها على العبوات.

بالتأكيد، شكراً لك.

رافقت مها الطبيب إلى الخارج بعد أن أطفأت ضوء الغرفة وأنزلت الستائر الرمادية مما جعل النور في الداخل خافتاً جداً، ويبدو أنهما تابعا حديثهما لكن الصوت بعيد ولا أفهم ما يقال مع أني حاولت الإنصات قدر المستطاع، وبعد عدة دقائق عادت مها مغلقة باب المنزل واتجهت نحوي، فحاولت الاستفسار منها عما دار من حوار.

ماذا قال الطبيب لك؟

لا تقلق، فقد أخبرني أنها مجرد حساسية، ربما لدغتك حشرة ما ولم تشعر بها.

هل تقصدين حين جلسنا في الخارج؟

ربما الأهم الآن هو التزامك بالدواء وخاصة القطرة لأن عينيك متضررتان قليلاً.

أريد مرآة.

قلت لها غير مقتنع بكلام الطبيب، ليس الأمر مجرد حساسية أو لدغة حشرة، لكن مها حاولت التهرب لسبب غير مفهوم.

يجب أن ترتاح وتبقى في العتمة.

قلت لك أريد مرآة !

أعدت تكرار الطلب غاضباً، لا أستطيع التفكير بشيء آخر الآن غير رؤية ما يجري، فأنا أكره الغوص في أحاديث الغموض وخاصة بما يتعلق بي، فاقتربت مني مها دون أن تنطق بحرف وحاولت تهدئتي وهي تمسك بيدي كأنها تخشى علي من الانهيار.

لن يكون الأمر سيئاً وسأتقبله لا تقلقي.

- حسناً يا حبيبي أرجوك أن تهدأ وسأحضر لك

المرآة ما أن يتحسن وضعك.

أحضري المرآة وكفى جدالاً!

حسناً، لكن تناول دواءك أولاً.

تناولت من يدها حبتين لا أعلم ماهيتهما قبل أن تخرج من الغرفة، كأنها شعرت أن الأمر زاد على حده

ولا تريد أن أتضرر أكثر، لكنها غابت لوقت أطول من المنتظر وبدأت أتململ، وقبل أن أنادي باسمها فتحت الباب ودخلت مع مرآة صغيرة، كأنها لا تريد أن أشاهد كامل المنظر دفعة واحدة، بل تريد أن أكتشف سبب الألم رويداً رويداً.

فتحت الستارة قليلاً ليتغلغل النور للداخل وربما كي لا يتسنى لي التعمق بالتفاصيل أكثر.

تفضل هذه المرآة.

شكراً.

أخذتها بلهفة السجين لفسحة حرية، وبدأت أتفحص جيداً ما قدرت على استيعابه، بدا الجزء المحيط بعيني اليمنى وكأنه أثر لحرق قديم، تصنعت الهدوء وأنا أشعر بمها تحبس أنفاسها وترقب ردة فعلي، استغرقت في النظر في هذا الجزء ثواني معدودة كانت أشبه بأيام مقارنة بمدى سرعة حفظي للمنظر المريب الجهة اليسرى فيها حرق مشابه لكنها تحتوي خطوطاً حمراء قاتمة للغاية أو ربما ظلام المكان أوحى لي بهذا اللون الغامق، كانت الخطوط تتشابك مشكلة بعض الحروف أو هكذا تخيلتها

للحظة لدرجة أنني حاولت قراءتها رغم صعوبة ذلك، لا أعلم كيف نطقت بذلك الاسم الذي تراءى لي بين الخطوط..

نور لم أتم الاسم حتى تهشمت المرآة بيدي وأسقطتها على الأرض وأحسست بشيء يحرق عيني بشكل لا يحتمل لدرجة أنني سقطت عن السرير، صرخت مها وركضت لتعينني على النهوض لكنها لم تستطع فقد كان الألم يمتد لكامل جسدي، مفاصلي ترتعد جلدي يحترق كل شيء داخلي ينتفض وجعاً، لذا وبكامل خوفها احتضنتني وهي لا تعلم ماذا تفعل، وأخذت بالبكاء بشكل هيستيري.

قال لي الطبيب إنه عمل ما يقدر عليه، ولكنها المرة الأولى التي يقابل بها حالة كهذه.

كانت الدموع تغرق عينيها الواسعتين وهي تتكلم بصوتها الحنون الذي يحمل قدرة عجيبة على إخماد النار داخلي.

أخبرته بكوابيسك أيضاً، فنصحني بمقابلة الشيخ، لو استجبت لطلبي منذ البداية فربما ما وصل بنا الحال إلى هنا.

سأقابل ذلك الشيخ.

قلت لها وأنا لست مقتنعاً بهذا القرار، ولكن يجب أن أريح ضميري وقلب مها وأجرب أي حل يخفف ألمي، فانكسار المرآة بهذا الشكل ليس طبيعياً، هناك شيء لا أعلم حقيقته يتربص بي ويجب البحث في خفايا هذا السر قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة أكثر.

حاول أن تساعدني على النهوض.

قالت وهي تبذل جهدها محاولة حملي بيديها النحيلتين الضعيفتين، فنهضت بكل ما بقي من قواي وزحفت إلى السرير بعد أن هدأ الألم قليلاً، وطلبت منها إغلاق الستارة من جديد والخروج من الغرفة لأنني أريد البقاء وحدي لبعض الوقت.

أغلقت مها الستارة وقدمت لي المنشفة المبللة لأخفف حرارة الألم ثم غادرت الغرفة، حيث عاد المكان للعتمة مجدداً وعدت المحاولة تذكر جميع تفاصيل الرؤيا الأولى والثانية عسى أن أجد خيطاً يربط جميع هذه الأحداث المرعبة، ثم مضى الوقت ولا أدري كيف سرقني النوم دون أن أشعر، إلا أني

استيقظت على صوت جرس المنزل، لا أعلم كم الوقت تماماً لكن يبدو أن الشمس لم تغب فلا يزال النور في الخارج واضحاً.

"من يا ترى يطرق الباب؟"

لم أتمم قولي حتى فتحت مها باب غرفتي لتخبرني بأن الشيخ عبد الله جاء لزيارتنا.

أريد كأس ماء.

قلت لها دون أن أعير الشيخ اهتماماً فقد كان حلقي جافاً جداً وأشعر بعطش وجوع كبيرين.

دخل الشيخ وفتح الستارة على مصراعيها لدرجة مزعجة جعلتني أصرخ متألماً.

أغلقها أرجوك!

لم يعر الشيخ طلبي أي اهتمام، بل جاء ليقف أمامي حاولت قراءة تفاصيله ولم أستطع لكن النور المحيط به يوحي بأنه صاحب قدر وبركة، فتمالكت أعصابي لكنني أدرت وجهي لأخفف من وطأة النور.

منذ متى وهو كذلك؟

منذ يومين أيها الشيخ القدير. قالت مها محدثةً الشيخ.

ولكن ماذا تقصد بيومين؟ هل تتحدث عن كوابيسي؟

لم تسوء الحالة لهذه الدرجة سوى هذه الليلة.
أخبرته محاولاً تصحيح كلام مها عن حالتي.

أقصد يا عزيزي أنك نائم منذ يومين.

يومان!!

ربما هذا يفسر الجوع والعطش الشديدين، ولكن كيف مر الوقت دون إحساسي به؟

هل كنت غائباً عن الوعي ؟

لا يا عزيزي.. كنت تنام وتصحو لكنك كنت ترفض تناول الطعام أو الشراب.

لم يعد هناك شيء منطقي.. كل هذه الأحداث الجارية لم تبق للمنطق وجوداً، وعملي، والشاشة الصغيرة، والعملاء؟! كيف استطعت أن أخيب ظن الجميع بي؟!

دعني أفحص عينيك.

قال لي الشيخ وأمسك بوجهي يتفحصه جيداً وكأنه يريد قراءة تلك الخطوط اللعينة، ثم بدأ بتلاوة بعض التعاويذ غير المفهومة التي بدت وكأنها تؤتي ثمارها، وشعرت بعدها براحة كبيرة كأن ثقلاً هائلاً قد أزيح عن صدري.

أنا أعتبر نفسي شخصاً يؤمن بوجود الجن، لكني لا أستطيع تصديق الأقاويل حول ظهورها والقوى الخفية التي تحملها، لذلك لم أعر النوافذ التي كانت تهتز قليلاً اهتماماً فربما كان الهواء هو الفاعل، وظل الشيخ ممسكاً بوجهي يقرأ ثم أخرج زجاجة من الماء من جيبه وأخذ يرش يديه ببعضها ويمسح وجهي وحول عيني، تلك اللحظة بقيت خالدة في ذاكرتي من هول ما جاء بعدها، فقد شعرت وكأن وحشاً انتفض في داخلي من الألم بعد أن كان قابعاً يتلاعب بي بهدوء وروية ما هي القوة السحرية التي يحملها هذا الماء

حتى أحرقت الكائن الذي اكتشفت وجوده للتو! وكأن اللغز الذي كان يؤرقني في الفترة الماضية قد حل بلمح البصر.

ساعديني بتثبيته يا ابنتي.

كان صراخي مخيفاً حتى أن الصوت الخارج من داخلي لم يكن يشبهني، كان صوتاً يوحي بالقوة والوحشية، رعب كامن داخل أضلاعي يسري في الهواء الذي أتنفسه بصعوبة، كان لي الألم فقط وكان لذلك الوحش كل المتعة في التلذذ باستنزاف روحي وطاقتي، حاولت أن أساعد الشيخ ومها في تخفيف هيجاني لكن لم أكن قادراً على التحكم بجسدي، رغم إحساسي بكل تفاصيله وكأنني أدرك ما أريد وما أفعل.

لا أستطيع!

تصرخ مها وهي تحاول المستحيل لإعادتي إلى الواقع بينما يحاول الوحش الاقتصاص منها ومن جسدها النحيل بينما يستمر الشيخ بتلاوة التعاويذ ومسح وجهي بالماء المبارك الذي يحمله كلما سمحت له الفرصة بالاقتراب مني وكانت الأدوات داخل الغرفة تتطاير والنور أصبح أشد وأعظم، كل هذه القوة الخارقة تمتحن جسدي وأنا أنتظر بين اللحظة والأخرى أن أفقد الوعي ويخرس هذا الوحش المخيف.

"كم هو عظيم هذا الشيخ التقي، من أين له هذه القوة ليحارب وحشاً كهذا"

أقول لنفسي وأنا أراقبه ولا حول لي ولا قوة، كانت إرادته لا تعكس تقدم سنه وكهولته، بل وكأنه شاب في مقتبل العمر بخبرة سنين طويلة في مصارعة الشياطين والجن والوحوش أرى نوراً ينبثق من وجهه الذي لحد اللحظة لم أدرك جميع تفاصيله، هذا النور الذي يخط اسمه فوق جبيني، فأصيح: لا أستطيع التحمل أكثر!! ساعدوني.. ساعدوني.

يقف الشيخ كالجبل أمامي وكأنه يستعد لتوجيه ضربته القاضية إلى وحشي، ويبدأ بالزمجرة وقراءة أمور غير مفهومة لدرجة جعلتني أرتعد خوفاً منه، لقد خيل لي أن عينيه مقلوبتان للداخل والضوء ينبعث منهما في محاولة لإخضاعي أو إخضاع الوحش الشيطاني داخلي، الذي شعرت أنه لا يريد المقاومة بعد الآن فقد بدأت قواه تخور وتهدأ، وكأن الشيخ استطاع فعلاً ترويضه، ثم شعرت بصدري ينتفض في الهواء ليحملني في محاولة أخيرة لشيطاني بالخروج والهروب بأي ثمن أمام ضربات هذا الرجل التقي المؤمن.

إنه يهدأ..

نعم يا ابنتي يجب عليه ذلك.

هل انتهى الأمر؟

لا، لا يمكن الجزم بذلك، فربما يحاول الوحش المراوغة.

انظر لقد اختفت الحروق تتكلم مها على أمل انتهاء الأمر مع الشيخ الذي يبدو من خبرته الطويلة أنه لم يقتنع بتمثيلية الوحش، بل كان يعيد استجماع تركيزه وطاقته ويعيد مسح وجهي بالماء، فأسمع أنين صوتي المتعب لتبدأ بعدها باقي تفاصيل جسدي بالحياة مجدداً: أنا بخير..

قلت وأنا أتحسس وجهي لمحاولة تصديق كلام مها عن الحروق، لقد اختفت فعلاً الحمد لله على سلامتك، استرح الآن.

شكراً لك.

كانت ابتسامة زوجتي تعكس سعادة لا توصف، وكأني عدت من الموت، وكان امتلاك القوة والسيطرة على جسدي مرة أخرى بمثابة ولادة جديدة بالفعل، فلم يعد يزعجني النور، بل شعرت أنني أصبحت جزءاً

منه في الواقع، إحساس جديد نما داخلي كأن اللعنة تحولت إلى هبة، وكأنها تريد من جسدي تقبل الأمر والتسليم الخالص لها بعد أن حاولت رفضها والاختباء في الظلام.

غادر الشيخ بعد أن اطمأن على حالي، وربما لأنني أصررت كثيراً بأن وضعي جيد ولا داعي لبقائه، وتقصدت صرفه من المنزل، وربما لست أنا الفاعل رغم أنني مدرك جيداً لما أفعله، فما زالت أفكاري متشابكة ولا أقوى على إيجاد منطق لكل هذه التصرفات. عادت مها إلى الغرفة بعد أن رافقت الشيخ إلى الخارج قائلة: أخبرني الشيخ أنه يعتقد أن الجن الأسود كان يحاول احتلال جسدك وتلبسك.

جن أسود؟

نعم هذا ما أخبرني به وأعطاني بعض التعاويذ والآيات التي يجب أن أقرأها لك يومياً قبل النوم، من أجل تحريرك.

لكن لم أنا؟ ماذا فعلت حتى ابتليت بهذا الجن؟

أعتقد يا حبيبي أنها تلاحق الأكثر تقرباً من الله، فتحاول تحييده عن محبته، لكن لا عليك فالأمر

انتهى وأنت أثبت قوة إيمانك وطردتهم كما توقعت منك.

عسى أن يكون خيراً.

نهضت للمشي قليلاً بعد هبوط الليل لأن جسدي كان متيبساً بعد استلقائي لمدة طويلة، إحساس غريب ولكنه مألوف بعض الشيء شدني للخروج من المنزل، كانت أصوات الضحكات والسهرات الدافئة في البيوت تغطي على هدوء الشارع وسكونه، أخذت أراقب مظاهر الحياة مستمتعاً بالنظر إلى النوافذ المضاءة بعد أن استعدت عيني، ثم أعادني ضوء سيارة قوي من شرودي، وتبادرت إلى ذهني ذكرى السيارة ذات الخيالات السوداء المرعبة، فلم أستطع إخفاء هلعي حتى أني تجمدت في مكاني للحظة، لكن هذه المرة اتضح المشهد جيداً، ولمحت طفلة تجلس في المقعد الخلفي وتنظر إلي ببراءة، فعرفت أن أوهامي عادت من جديد.

ثم أدركت أنني ابتعدت عن المنزل ولا أريد أن أشغل بال مها فعدت أدراجي سريعاً، كانت زوجتي العزيزة بانتظاري حين دخلت وقد أعدت بعض الطعام لكنني

لم أكن أشعر بالجوع رغم أنني بقيت يومين دون أن أتناول شيئاً، فقررت إجبار نفسي على تناول ولو لقمة واحدة لئلا أجازف بانهيار آخر لجسدي المتعب فجلست إلى طاولة الطعام ليدور هذا الحوار الهادئ

هل تشعر بتحسن؟

لا أعلم، لكنني لا أشعر بتوعك وهذا هو المهم. لقد قلقلت عليك يا عزيزي، وأتمنى ألا تتكرر هذه التجربة البشعة.

هناك شيء ما يقلقني.. فلو سمعت هذه القصة من أحد لاستغربت كيف خرج منها سليماً ولم يدخل المستشفى على الأقل من قلة الطعام والماء، خاصة بعد أن استهلك الوحش طاقته.

معك حق، لقد تردد هذا السؤال في ذهني أيضاً، كيف استطعت تحمل كل هذا ؟

أشعر بوجود مصدر غريب للطاقة داخلي، وكأنني متخم بها.

هل تقصد أن الجن ما زال بداخلك؟

لا أعتقد ذلك، فقد اختفى إحساس الاختناق والخوف الذي كان ينتابني في الأيام الماضية، واختفى شعوري بأن هناك من يراقبني دائماً.

هذا جيد، ولكن يجب أن نلتزم بتعاليم الشيخ حتى تتحرر تماماً من هذه التجربة.

أجل، كما أني يجب أن أقابل هذا الإنسان التقي

لاحقاً لأشكره على جزيل ما فعل.

ستفعل ذلك بالتأكيد يا عزيزي.

نسيت أن أسألك إن اتصل أحدهم من العمل.

نعم، اتصل محمد وأخبرته بأنك مريض جداً فطلب لك استراحة، لا تقلق.

انتهى الحديث وذهبت لأخذ حمام سريع أريح به أعصابي، وما أن انتهيت حتى انطلقت إلى غرفتي واستلقيت على السرير، فدخلت مها ومعها تلك الورقة التي تركها معها الشيخ.

حاول أن تغمض عينيك وتسترخي.

قالت لي ذلك ثم بدأت بقراءة بعض ما كتب، أغلقت عيني وحاولت التركيز بالكلام الذي يبدو وكأنه تعاويذ

وآيات تملأ القلب سلاماً. لم تنه مها قراءة عدة سطور حتى فتحت النافذة المغلقة بكل قوة مما جعل زجاجها يتطاير في الغرفة، لتصل قطعة زجاج إلى يد مها التي تحمل الورقة وكأن هذا الجنّ خرج ليمنعها من إتمام التعاويذ، وبدأت تنزف فنهضت بكامل قوتي واحتضنتها وهي تصرخ من الألم والخوف، محاولاً حمايتها من الزجاج الذي لا يزال يتطاير في كل مكان ثم أخرجتها من الغرفة، وأحضرت منشفة وضغطت على الجرح قدر المستطاع الإيقاف النزيف. ربما علينا الاتصال بالشيخ مرةً أخرى.

قالت لي مها وهي تحاول التحامل على وجعها.

لن نتصل به وربما لم يكن علينا المغامرة بقراءة تلك التعاويذ.

أخبرتها وكأني أشعر أننا أزعجنا الوحش الخامل

داخلي، كما كنت في الحقيقة خائفاً من عودة ذلك الألم.

سنمضي الليلة هنا وسنجد حلاً غداً.

لقد كان المستشفى بعيداً عنا ولا أستطيع طلب الطبيب في هذا الوقت، كما لا أريده أن يشاهد ما يجري في المنزل، وأظن أن مها فهمت قصدي فلم تمانع البقاء في غرفة الاستقبال حتى الصباح. لم أنم في تلك الليلة مطلقاً ولم أشعر بالنعاس، وبقيت ساهراً أخشى حدوث شيء آخر، كما كنت أتفقد زوجتي التي استسلمت للنوم بعد أن خف الألم، وكان الصباح هادئاً ولم أعد أسمع أي حركة داخل الغرفة فقررت الدخول لتفقد ما جرى.

كان الأثاث محطماً بالكامل حيث سقطت بعض الصور المعلقة على الحائط وتهشمت المرأة الكبيرة حتى السرير لم يسلم من الخراب فكانت أرجله محطمة وكأن طائرة هبطت فوقه، حاولت إزالة ما يمكن وإعادة بعض الأشياء لمكانها، وعلى الجدار كان المشهد صادماً فقد وجدت ورقة مثبتة بإحدى قطع الزجاج، وعندما حاولت إزالتها اكتشفت أنها الورقة ذاتها التي كانت تقرؤها مها ، لكن الكلام كان مغطى بالدماء بشكل كامل، وكأن ذاك الكيان لم يرد لمها أن تتم القراءة.

جاسم..

كان صوت مها ينادي فتوجهت نحوها وقد أصابها الشحوب الذي لم يستطع تشويه نعومتها ورقتها.

- نعم يا عزيزتي أنا هنا، لا تجهدي نفسك.

قمت بتحضير الطعام ولم أخبرها بما حصل داخل الغرفة، على الأقل حتى تستعيد نشاطها.

لم أكن أفكر بالعمل أو بأي شيء آخر، شعرت بأنني مفصول تماماً عن الواقع، وشغلي الشاغل حالياً هو العناية بزوجتي وإيجاد حل لإخراج هذا الوحش المختبئ في المنزل أو في داخلي، وقمت بإصلاح ما يمكن إصلاحه لكن الخراب كان كبيراً.

مضى الوقت سريعاً، ولم أسمح لزوجتي بالاقتراب من الغرفة المشؤومة قدر الإمكان، لكنني بالمقابل

بقيت أتردد إليها؛ شيء ما كان يشدني للدخول وإغلاق الباب على نفسي والتمتع بالهدوء الغريب في الداخل وكأنها موسيقى تشفي الروح، إضافة للطاقة الغريبة التي كانت تمنحني إياها لدرجة أثرت حتى على طبيعة جسدي؛ فَقَلَّ نومي وطعامي كثيراً وصرت أبقى

في الداخل الساعات دون قيامي بأي حركة كأنني أنتظر حصول حدث ما.

في صباح أحد الأيام، سمعت خطوات مها تفتح باب المنزل وتغادر، ولكنني لم أبال بخروجها وظللت في الغرفة التي لم أغادرها منذ الليلة الماضية، ولم أنتبه المرور الوقت إلا حين سمعت الباب يفتح مرة ثانية وقت الظهيرة، وأنا متسمر في مكاني، وعلى انعكاس أجزاء المرآة المحطمة أتأمل وجهي الأصفر الشاحب.

"بدأت تختفي ملامحي السمراء الجميلة وصرت كالشبح"

أقول لنفسي وأنا أتفحص وجهي بيدي، لكنني ما زلت لا أبالي، حتى لو اختفيت تماماً فشعور السلام يأخذني لعالم لا يمكن وصفه، صار وجودي في الغرفة بحد ذاته إدماناً ولذة لا تنتهي، وفجأة فتح باب غرفتي، ووقفت مها أمامي، أتذكر جيداً وجهها الدافئ الحنون وشفتيها اللتين بدأتا بدون سابق إنذار تتلوان بعض الكلمات كأنها تلقي تعويذة لتخرجني من المكان

الذي اخترت البقاء فيه، لم أملك الوقت الكافي لإخبارها بضرورة المغادرة قبل أن تصاب بأذى، فقد بدأت أشعر بحركة الأشياء حولي.. لا أعلم أين كانت مها وكيف أصبحت بهذه القوة لتتجرأ على مواجهة ذاك الوحش المخيف بعد ما فعله بها آخر مرة. بدأ الأثاث داخل الغرفة بالاهتزاز، النوافذ والباب والزجاج المحطم والمرآة، كل شيء أصبح يهتز، وفجأة طافت كل القطع المكسورة في الهواء؛ كأن الوقت توقف أو أن الوحش يستعد ليشن هجومه على مها التي لا تزال واقفةً مغمضة عينيها تتلو تلك الكلمات غير المفهومة، لم أرها كذلك سابقاً، واثقة مما تفعل وكأنها تنتظر خروج الوحش ليواجهها، وكنت قلقاً جداً عليها لكنني لا أستطيع القيام بأي حركة ولا أستطيع قول أي كلمة.. لا أستطيع ولا أريد في الوقت نفسه.

اختفى الهدوء الذي جعلني أختار الجلوس في هذه الغرفة بالمقام الأول، وانفجرت بكل ما فيها وكأنها قنبلة تريد أن تؤذي مها ، لكن هالة غريبة أحاطت بها ومنعت الغرفة من أذيتها.

" ما سر هذه القوة العجيبة ؟"

قلت لنفسي وأنا خائف من أن ينتهي إحساسي بالأمان في الغرفة ويغادر ذلك الوحش للأبد.

اخرجي!!

صرخت بكل ما تبقى لدي من قوة بعد أن بدأت أشعر بالضعف وبدأت تعويذتها بالتأثير على الغرفة وكنت أعلم أنها لن تغادر حتى تنهي ما بدأته، وبالفعل ما أن انتهت حتى ابتعدت عني وأغلقت الباب.

كانت الدموع تنهمر على خدي قلبي يؤلمني وأحاسيسي محطمة، أتوق بشدة لاستعادة حياتي ومنزلي وزوجتي لكن الأمر خارج عن إرادتي.

لماذا أنا يا الله؟!

متابعاً الشكوى والدموع لا تتوقف عن السقوط. ظلت مها تتردد إلى الغرفة كل يوم لتطمئن على حالي وتترك لي الطعام والشراب، وفي فترة الظهيرة وفي الوقت ذاته تماماً تقرأ تلك التعويذة، وكما هو متوقع كانت الغرفة تهاجمها دون فائدة، بل وصار مرت أيام وأسابيع ورائحتي على السرير المتكسر أصبحت

كرائحة الجثة، كرائحة أوراق الشجر العفنة، لا واضحاً أن الوحش يضعف.

أعلم أن كنت حياً أو ميتاً ، وحين أعود للواقع قليلاً أحاول تناول ما استطعت من الطعام ليساعدني على النجاة لكن لم يعد بمقدوري مغادرة الغرفة كما كنت سابقاً وكأنها تتغذى على ما بقي مني.

شيئاً فشيئاً اختلطت علي التفاصيل، فلم أعد أدرك الحقيقة مطلقاً، صارت مها مجرد حلم جميل يعبر في ثنايا وعيي صارت قنديلاً أهتدي به حين أضيع في عالم لا يشبهني؛ في عالم يستخدم جسدي ليعلق عليه جحوده وقسوته، فتلهو الشياطين والوحوش داخل جلدي ولحمي وعروقي التي جفت من الحياة، وصار صوت مها منارة تعزف موسيقى قلبي الضائع في ألحان الموت التي لا تتوقف.

الأيام تتوالى ومها لا تتوقف عن محاولة إخراجي من هذا السجن المظلم، أدرك ذلك من القوى الغامضة التي بدأت تتدخل للنيل مني، إنها تتواصل مع كل أنواع الجن الذين انتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا إخضاعي والتحكم بي، لأن القوة التي تسري في داخلي

هي أشبه بالغذاء لهم ويجب أن أحاول إخبار مها بذلك لكنني لا أقدر ولن أقدر إلا بمعجزة! كنت أشعر أن الجن يتغذون على روح مها أيضاً فهي تشعر بتعب شديد حيث صار صوتها مخنوقاً وعميقاً ولم أعد أستشعر قوته كالسابق.

" إن خسرتها فسأكون أنا المذنب فقط"

أقول في نفسي وأحاول بأقصى ما أستطيع الوصول لها ومنعها من الاستمرار، شيء يتمزق داخلي ويريد الخروج شيء يشبه الضوء يمنعني من التعرف عليه يريد تمزيق صدري، عاد الألم ومن شدته لا أدرك كيف صار لصراخي صدى آخر داخل الغرفة جعل مها تتوقف عن القراءة وأعادها للواقع مثلي.

لكن ماذا يجري، توقف.. توقف!!

تصرخ مها مرتعبة وتحاول الإفلات مني، أنا الذي كنت أحاول إنقاذها ولم أنتبه أنني أسحبها العالمي ولسجني، لم أنتبه إلا بعد فوات الأوان.

"في غفلة الفراغ تصبح الذكريات رفيقاً، يصبح الزمن وشاحاً يغطي آلامنا وأحلامنا المكسورة، حين كان

للحياة طعم وأنت على استعداد لمواجهتها بكل ما أوتيت من ضحك ومن لعب"

كنت أخاطب قلبي وأنا أسحب بكامل استسلامي إلى حيث لا مكان للاختباء ولا مكان للتظاهر بالقوة إلى حيث أجبر على مواجهة الحقيقة، ليصبح سقوطي بعدها عبارة عن لقطات متتالية لماضي، فيصغر جسدي بينما تتسع رؤيتي للأمور، لأصل إلى الوجع الذي أودى بي إلى هشاشة سعادتي المصطنعة.

لذا وبعيداً عن النور وعن انعكاس الجرح في مرآة أفكاري وأحلامي، عرفت في هذه اللحظة أن للطفولة في نظري ميثاق شرف، ويجب أن يُعاقب من تساوره نفسه للعبث بقداسة معنى تلك البراءة التي تحبو على أربعة، فكيف إن كان المعتدي هو قنديلك الأول المحترق النار المتنكرة في هيئة حبل نجاة والتي قد تلتهم يديك وقدميك وتجبرك على القفز والدوران والزحف؛ زحف على طول سني نجاتك الممرغة بالتسلط والجبروت وعدم الإنسانية.

أذكر جيداً كيف كان؛ خشن الهيئة مع شاربين عريضين وجسد أسمر ممتلئ يخرج صباحاً مع قبلة

على الجبين ليمهد لي اليوم بالحب، ويعود مساءً ليختتم يومي بقبلة حب غير مشروط قبل النوم، حتى حين تحاول أمي استفزاز برودة ملامحه بنقل بعض شقاوتي ومسار يومي الممتلئ باللعب والاكتشاف والتخريب كمحاولة منها لإخباره عن مدى صعوبة التربية والقيام بمسؤوليات البيت الأخرى، يبادلها أبي بابتسامة باردة أيضاً وكأنه يعلم ذلك ولكن من الصعب عليه التعبير عن الأمر بطريقة ألطف طبقاً لطبيعته فتتمتم أمي بعض الكلمات الغاضبة وتختفي بعد انتهاء عملية التنفيس عن غضبها الدائم.

كنت أستغرب هدوء أبي المحب الدائم واكتفاءه بالاستماع، فتغرق ملامحي الناعمة وجسدي النحيل في نوم مفعم بالرضا، وكنت أحياناً أصحو على ضجيج المطبخ وقرقعة بعض الأدوات التي تسقط أرضاً، لم يعلم عقلي الصغير إن كانت تهوي وتنكسر وحدها أو كان هناك من يرميها لسبب ما لا يدركه صغر سني وخاصة أنني لم أكن أسمع صوت أمي وأبي يخرج بعد هذا التخريب، ودائماً ما أرجع لنومي غارقاً في الهدوء الجميل.

كبرت قليلاً لأتعرف على المحيط الخارج عن إطار وعيي، من أقارب وأطفال وحشرات وحيوانات وأشجار وشمس وليل وكل ما يمكن للذاكرة أن تحمله ليبدع خيالها الواسع، حيث كنت أؤلف مسرحاً طفولياً بريئاً لا أذكر تفاصيل مشاهده لكنه كان ينعكس على تصرفاتي غير المسؤولة، فتؤدي في بعض الأحيان لتخريب غير مقصود وبالتالي كلمة نابية أسمعها من أحدهم دون أن أعلم ما تعني.

غبي، سأصفعك!

إنه صبي أحمق، دعه يا أخي. هذه تربية والده السيئة.

والده لا يفرغ أساساً لتربيته ويقضي وقته في اختلاق الشجارات وتحطيم الأشياء ليثبت رجولته لا تقلقي، سأكلمه اليوم ليحسن تربية هذا الغبي.

حوار جمع خالي وأمي بعد أن أسقطت كأس الشاي الخاص به وكسرته بينما كنت أركض وأفتح يدي على وسعهما كالطيور، حوار بقي معلقاً في ذاكرتي لوقت طويل، كأني كنت أعلم أن تلك اللحظة ستكون لاحقاً مفصليةً في تاريخ حياتي القاتمة القادمة، لملمت أمي

قطع الزجاج المحطم وأدخلتني إلى غرفتي، ولا يزال صوت القفل وهو يغلق من الخارج عالقاً في ذاكرتي حتى أني أذكر جيداً كيف كتمت أنفاسي وجلست على سريري مرتعباً من سجني الصغير، تلك الذكريات بقيت حبيسة لا أجرؤ على إظهارها، ربما لأن ذكريات أبشع حلت مكانها وحفرت وجعاً لا ينسى ولا يكتم.

حل المساء على أمل أن أسمع صوت القفل مرة أخرى يُفتح، لكني لم أكن أسمع سوى قهقهة خالي وأمي منشغلين في أحاديثهما التي لا تنتهي بسبب قلة زيارة خالي لمنزلنا، والتي كانت انعكاساً لمشاعري السوداء وبداية خيوط مسرحية مؤلمة يخطط لكتابتها وتنقيحها والإعلان عنها لأبي ليقوم بتنفيذها بأدق التفاصيل الممكنة المسببة للتعاسة وخاصة بتبنيه لأكثر من شخصية تبدأ بالأب والقاضي وتنتهي بالجلاد.

أهلاً، أهلاً.. حلت البركة.

أهلاً بك يا صهري العزيز.

يتكلم أبي بنبرة مختلفة حين يكون خالي هنا، حيث تربطهما صداقة وثيقة لا يمكن تفسيرها، اتضحت

لاحقاً معالم تلك العلاقة والتي تعتاش على القصاص وتتنفس الشر.

أهلاً يا عزيزي العشاء جاهز.

قالت أمي وانطلقت لتجهيز الطاولة.

لقد كان ذلك من المشاهد الغريبة أيضاً فلم تكن أمي ترحب بأبي بتلك البشاشة إلا حين يكون خالي أو أحد أقربائنا في زيارة لنا؛ تريد هي الأخرى تقمص دور الأم المثالية وتجميل الواقع.

تتسع دائرة وعيي وأتابع سقوطي، وتتراكم الأفكار والآلام دفعةً واحدةً، أحاول التعلق بإحدى تلك الأفكار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وأنا أتمسك بها أخشى عليها مني ومن المكان الغريب الذي نهوي إليه"

أقول لنفسي ثم تعيدني الصور القاتمة في تلك الذكرى لأتابع سرد تفاصيلها بعناية.

هل جاسم نائم؟

لا بل هو معاقب، لقد زادت شروره على حدها اليوم فحبسته في الغرفة لتأنيبه.

دعيه يخرج، يجب أن يأكل معنا.

لم يطل الحديث أكثر، كنت أضع أذني على الباب وأسمع اقترابها منه لأقفز فوراً إلى السرير. كان الخوف والارتعاش أول ردة فعل لي حتى حين أتذكر تلك

اللحظة تعود دقات قلبي للخفقان وأشعر ببرودة في

جسدي لا أعرف سببها، حتى تفتح أمي الباب وتطلب مني الخروج بلهجة قاسية.

تعال العشاء جاهز.

اقتربت على مهل محاولاً تجنب تعنيفها لي؛ رغم أنها كانت تكتفي بالصراخ فقط لكن لا أعلم لم شعرت في ذلك اليوم أنها تريد القصاص مني بأي شكل لذنب

لم أقترفه ذنب كانت براءة طفولتي هي سببه.

أسرع، لم كل هذا البطء؟ أصبحت الآن مهذباً!

أمسكت بي من يدي ودفعتني للخارج، ورغم الجوع الذي كان يفتك بمعدتي الصغيرة الجوفاء لكنني لم أكن أشتهي الخروج أبداً، كانت رغبتي بتحرير ذلك القفل فقط، أريد الشعور بالحرية لا أكثر، لا أريد أن أختنق بهذا الشعور الجديد؛ هذا الخوف.

ماذا فعلت اليوم أيضاً يا جاسم حتى تعاقبك والدتك؟

كاد أن يحرقني بالشاي بسبب غبائه.

هل فعلت هذا حقاً يا جاسم؟

لم أستطع الرد وقتها فأبقيت رأسي مطأطأ خجلاً من رعونتي، أسترق بعض النظرات لوجه خالي حسين الذي كنت أرى ابتسامته كأنها نوع من الشماتة، كيف لي أن أميز الصواب من الخطأ وعمري لم يتجاوز الخامسة؟ كيف يمكن أن أعاقب وأحاصر بهذا الشكل؟

اعتذر من أمك.

قال أبي تلك الجملة المبطنة بالتهديد منتظراً مني أن أعتذر على الفور، لكنني بقيت متسمراً في مكاني وأفكر بتلك الابتسامة الصفراء.

- ألم تسمع؟ اعتذر من أمك حالاً.

اشتدت نبرته مما دفعني للركض إلى حضن أمي والبكاء دون أن أعتذر فعرفت أن رسالة اعتذاري وصلت، ثم حملتني أمي ووضعتني على كرسي بجانبها وبدأنا

بتناول العشاء الذي تخللته بعض الأحاديث بين أبي وخالي عن العمل والتنقل بين المدن وصعوبة التأقلم مع الظروف الاقتصادية الصعبة.

انقل عملك إلى هنا وسأبحث لك عن منزل قريب

منا، فالحي هنا هادئ ومريح.

كان ذلك الاقتراح مرعباً لي لدرجة توقفت عن مضغ اللقمة، مما أثار حفيظة أمي التي كانت تراقب كل تصرفاتي لإثبات نظريتها الخاصة بالتربية. هل تريد أن تعود إلى الغرفة؟ تناول طعامك وكفاك لهواً.

هويناً عليه إنه طفل، سيتعلم رويداً رويداً.

إلى متى سيظل يحتمي بشقاوته وبك؟

تأفف أبي وكأنه يريد إثبات سيطرته وخاصة أمام خالي الذي لحد تلك اللحظة لم يكن يتدخل، بل اكتفى برسم ابتسامة على وجهه، ثم ضرب أبي الطاولة ليعلن في ذلك اليوم انتهاء فترة القبلة قبل النوم واستبدالها إلى القوانين الصارمة والجلد النفسي الذي تمادى لاحقاً ليصل إلى الأذى الجسدي.

انتهى العشاء أخيراً، كان أطول عشاء أتذكره لسنوات طويلة سنوات غيرت طريقة رؤيتي للأمور؛

وأيقظت داخلي شوقاً لأكبر وأهرب من الطفولة وأستوعب كل هذه الأحداث التي كانت تتخطى المنطق، فاستلقيت على سريري بعد حكم النفي الذي صدر بحقي وأخذت أصلي كي لا تنجح خطة خالي بالانتقال إلى هنا فزيارة واحدة في الشهر تفتعل الكثير من الشرور داخل حياتي، ماذا سيفعل إن أصبح أقرب وكثرت زياراته؟!! بقيت تلك الفكرة تدور في رأسي فاعتصر قلبي قلقاً لأختنق بعدها بالنعاس وأنام.

"كيف للوعي أن يمس البراءة، تلك البراءة التي لا تدرك سوى اللهو والفرح تتوسع رؤيتي للأمور أكثر وتنقشع الغشاوة عن الصور السوداء في ماضي وأنا أسقط أسقط إلى حيث لا أدري"

غارقاً في تلك اللحظات ومحاولاً تجميع قطع الأحجية كنت أستذكر اللحظات الأكثر مرارة، التي كان خالي جزءاً لا يتجزأ من مسلسلها الطويل، تذكرت يوم جاء ليبلغ والدي في يوم العطلة ببشرى انتقال عمله إلى حي قريب منا فكان الاحتفال بعدها مميزاً جداً لدرجة نسي وجودي فاطمأن قلبي وتابعت اللعب بالمكعبات البلاستيكية؛ فمرة أصنع منها طائرة ومرة سيارة في محاولة مني لابتكار وسائل

هروب متمنياً أن تتحول إلى حقيقة أمامي لأركب فيها وأبتعد.

قد لا يصدق أحد أن طفلاً في هذا السن تخطر في باله هذه الأمور، لكن حين أستذكر تفاصيل تلك الأمنية البسيطة لطفل عانى وسيعاني لاحقاً الكثير، يعتصر قلبي ألم لا يحتمل.

تختلط الأحاسيس في داخلي، أشعر بجلدي يستشعر الخطر القادم ولا أدري إن كان ذلك نابعاً مما أنتهي إليه في سقوطي العبثي؛ أم هي صور حية من الماضي"

أكتفي بالإصغاء لصوتي المختنق وأتابع سرد حكايتي وحيداً، بتركيز تام على نقل المشاعر المنقوشة في سراديب حياتي المظلمة كأني أريد تنقية جسدي من كل الشوائب العالقة، فالألم الممزوج بالأمل مرهق جداً.

تعال إلى هنا.

قال خالي وهو يفتح يديه على وسعهما.

أتمنى لو أستطيع العودة بالزمن إلى الوراء لأعقد تلك الهدنة الهزلية مع الألم، لكن لصغر سني حينها

اعتبارات أخرى فقررت أن أتراجع خطوة للوراء ثم ألتف هارباً، لكن قدمي كانتا خدرتين ولم أقو على الحراك.

ألا تسمع يا صبي تعال والعب مع خالك.

قال أبي.

اتركه، قلت لك إنه يحتاج للتربية من جديد وإلا فلن تترجى منه خيراً! رد خالي ببرود.

لم أع سبب إصرار خالي على إثارة غضب أبي الذي لم أعتد تأنيبه لي، وهو من علمني أن مساحتي الخاصة مهمة وأن لا بأس أن أحتاج بعض الوقت لأعتاد على وجود خالي المستمر في منزلنا.

للأسف لم أحظ بذلك الوقت، حيث كان أبي بعضلاته المفتولة السمراء واقفاً أمامي كالجبل الأقرع كغيوم الشتاء السوداء التي تغطي منزلنا، وكانت المرة

الأولى التي أكون فيها بتماس مباشر مع الألم الجسدي، كانت تلك الصفعة الأولى وبداية عذاب أشبه بالكابوس الطويل.

سأعلمك الإصغاء يا ولد! تجمدت في مكاني وأصابع يده تنقش على وجهي من قوتها، وبدأت دموعي

تتساقط دون توقف، لم أتلفظ بحرف ولم أصرخ وحاولت كبت صوتي قدر الإمكان، فالجبل الذي كنت أتكئ عليه انهار الآن على جسدي الصغير، وخالي بابتسامته الصفراء يعبر عن مدى سعادته وكأنه يتمنى لو كان هو الجلاد.

ادخل إلى غرفتك، تعال.

أخذت أمي بيدي وأدخلتني إلى الغرفة، كأنها لا تريد أن تصل الأمور إلى أن أضرب وربما شعرت بأنها السبب بذلك، فوضعتني على السرير وأخذت تربت على كتفي وظهري دون إظهار تعاطف كبير، لكنني شعرت بأمومتها للمرة الأولى منذ زمن طويل.

قلت لك أن تسمع الكلام يا جاسم تعلم من باب الاحترام أن كلام الكبار لا يمكن أن يرد.

لا أعرف الجواب المناسب لهذا الكلام الكبير على وعيي الصغير، لذا استمررت بالجمود والدموع قد جفت على وجهي، لكنها أعادت صياغة الكلام بطريقة أقرب لصغر سني:

هل سيصبح جاسم لطيفاً ومهذباً ويسمع كلام أمه وأبيه وخاله؟

ترددت قليلاً قبل أن أومئ برأسي كعلامة على فهمي للأمر.

مر اليوم بطيئاً جداً، صوت خالي وأبي يمتزج مع موسيقى الضحكات المتناغمة وأنا حبيس الوقت داخل سجني الصغير لا أجرؤ على الخروج رغم أن الباب كان مفتوحاً ورغم أن لون السماء كان أزرق للغاية ومشابهاً للون وجهي المصفوع.

كم تختلف الأمور حين تصبح نظرتك الخارجية الواعية مغايرة لسذاجة جسدك الطفولي الصغير وتصرفاته غير المفهومة، "فتصبح كل حركة يقوم بها هذا الصغير جلية وواضحة لك"

أستطيع أن أرى بوضوح جسد جاسم الصغير يتحرك بحريته ويطلق يديه للهواء ليطير، كم كان الطيران وقتها رائعاً؛ نظرتك تعلو نحو السماء وتتأرجح على كف الهواء بين شجيرات المنزل في الخارج دون أن تسقط مثلي ودون أن تأخذ قلبك وروحك الشياطين والجن وتصبح غريباً في هذا السراب الكبير.

"صدام نفسي أعيشه الآن وأحاول فصل الوعيين بعضهما عن بعض، لكن كل شيء ملتصق بقوة ولا

يرضى الإفلات، كأنها محاولة من جاسم الصغير الإخباري بالحقيقة المجردة دون تزييف وتجميل جاسم الذي يسترسل في نشر الحقائق بحذافيرها وأنا أضع لمستي الخاصة على الأحداث"

صارت الأيام كلها متشابهة، أفعل المستحيل الأرضي أبي الذي كانت تزعجه ألعابي الخيالية والشخصيات

التي حاولت عيش أدوارها لتؤنس وحدتي، فصار

ينتظر الفرصة لاقتحام سعادتي والانتقام مني بأبشع الطرق الممكنة، ويزيد خالي شقائي بالتحريض الدائم له وأحياناً استفزازه ليشبع وحشيته هو الآخر بسماع

صوتي أعاني وأبكي وأنزف.

مضى الوقت على الترهيب والجلد أنفسهما، وأذكر جيداً ذلك اليوم حين كان الطريق فارغاً، أسترق النظر من زجاج نافذة الغرفة أحاول تشتيت ذهني عن الرعب الذي أعيشه، لذا وضعت كرسياً ووقفت أراقب الطبيعة الصامتة، أستطيع رؤية أشجار النخيل العالية جداً تتمايل مع نسمات الهواء، فيخيل لي أنها ترسل سلاماً حاراً وتريد مني الخروج لمعانقة جذورها وتسلقها كي أصبح صديقاً لها

وللطيور التي تزورها بين الحين والآخر، لا أعلم كيف أخذني الخيال وأصبح الأمر حقيقةً حين نزلت مسرعاً عن الكرسي لأفتح باب الغرفة، وقد خيم الهدوء على صالة الاستقبال مع انشغال أمي في المطبخ، لأتسلل وأفتح باب المنزل بخفة وأخرج لمعانقة أصدقائي المنتظرين بحرارة.

في البداية كان المنظر رائعاً، فحجم الشجرة الهائل الذي يتأرجح يقدم مشهداً ممتعاً فوقي كمتابعة الغيوم المتحركة في السماء، لكن حين حاولت الصعود للأعلى لم أقو على ذلك بسبب الحواف الحادة والقصيرة فخشيت السقوط وإيذاء نفسي، لذا قررت احتضان النخلة كي تشعر بقربي منها فقط.

صوت دوى قربي وكأن السماء سقطت على الأرض! ماذا تفعل عندك؟ وكيف خرجت من المنزل؟ ألا تخشى أن يأخذك أحدهم أو أن تقع عن الشجرة؟

أجفلني صوت أمي بعد كم الأسئلة الغزيرة المفزعة، فتراجعت بسرعة للخلف لتتمزق سترتي الزرقاء وتتمزق معها أجنحتي وينتهي عناقي الجميل، كان

خوفها مبالغاً به مثل ردة فعلها على الكثير من الأمور الأخرى.

مزقت سترتك أيضاً!!

أمسكت يدي وسحبتني بعنف لم أعهده، رغم أني اعتدت شكواها الدائمة وأصبحت أذني جاهزة لتلقي

ذاك التأنيب الذي لا يتوقف لطفل لا يريد سوى اللعب والفرح.

لم تصل بي إلى باب المنزل إلا وتوقفت سيارة على الطريق، لمحت أبي وخالي معاً حين كنت ملتفتاً للخلف أودع النخلة بحرقة، كانت عينه مسمرة علي، أبي الذي صرت أراقب تغير أحواله وتقلب مزاجه واختفاء هدوئه وحنانه الذي صارت رؤيته تجعل ركبتي ترتجفان وقلبي يخفق بشدة وصدري يختنق بحثاً عن نافذة للنجاة.

أدخلتني أمي بسرعة كأنها تريد إبعادي عن طريقه، وقبل أن نصل إلى باب غرفتي أوقفها صوته الخشن تعال.. تعال إلى هنا.

أريد أن أغير ثيابه أولاً.

قالت له أمي ليغض النظر عني لكنه أصر على كلامه.

قلت لك هاتيه إلي!

اذهب لوالدك يا جاسم.. قالت بصوت حنون محاولة تهوين الأمر علي.

قلت لا بوجه أبي لأول مرة وأطرافي ترتعد لكنها انتفاضة طفل يريد أن يشعر ببعض الأمان.

- تقول لي لا انتظر عندك.

آخر ما لمحته كانت ابتسامة خالي الصفراء ذاتها التي لم أعلم سببها، ثم صار الألم ينهش جسدي ولم أر أبي بتلك الوحشية من قبل، بدأ بضربي بكل مكان أتيح له، وأنا أتكور على نفسي محاولاً التملص والهروب من الضربات المتتالية، كان صوته يرن في أذني قائلاً: سأعيد تربيتك أيها الشقي لن تخرج من غرفتك إلا بإذني بعد اليوم.

تدخلت أمي في تلك اللحظة لتحاول إبعاد أبي لكنه عنفها بشدة لدرجة شعرت أنه سيضربها هي الأخرى، لكنه تمالك نفسه بعد أن تذكر أن خالي يراقبه، ثم تركني وأدخلتني أمي إلى سجني وأغلقت الباب من الخارج.

في الصالة سمعت صوتهما يعلو، فعلاقتهما المتوترة من قبل قدوم خالي لم تساعد أمي في إقناعه بعدم ضربي، كما لم تستطع إخفاء خوفها المستتر من أن أصبح نسخة مطابقة له مما زاد الطين بلة، ليقابلها أبي بالتسلط والجبروت وإجبارها على تحمل مذلة العيش بقربه، وفشلت في حمايتي.

في سجني الصغير كانت النافذة وجهتي للحرية، فلا حياة لي خارج جدران هذا السجن، بل هي استراحة خفيفة للخروج للحمام أو لتناول الطعام؛ الذي كان عبارة عن اجتماع مغلق صامت يمنع اللقمة من النزول إلى البطن، لذا كنت دائماً أطلب الماء بجانب طعامي فيقابلني أبي بالمحاضرات العلمية التي لا أفهمها، الدرجة أصبحت أفضل الاختناق بطعامي لأستشعر بعض العطف منه.

مرت الأيام وأحلامي الصغيرة تكبر ولا يمكن للسجن أن يحتويها، لكن كيف أقنع أمي بمنحي بعض المساحة للخروج واللعب؟! لن تتجرأ على فعل ذلك كي لا يكتشف أبي الأمر فيزيد معاناتها، حتى أنها أصبحت تقدم لي الطعام داخل غرفتي كي تجنبني

الخروج لمقابلة أبي، وفي هذه الحالة لا يمكن لي سوى اختلاق عالم خاص بي لأخفف من بشاعة واقعي، فرحت أتخيل أطرافي تزداد حجماً لدرجة لا يمكن للغرفة أن تحتويني فأحطم النافذة وأخرج، ويتحول جسدي الصغير إلى عملاق بطول النخلة وأعانقها كثيراً معتذراً على الوقت الذي قضيته حبيس الغربة في غرفة الأسر المرعبة، وأرى بعدها خالي وأبي يتقدمان نحوي فلا أخاف بل أراهما فخورين بي وسعيدين بشجاعتي وفي يوم ما قاطع خيالي صوت باب الغرفة يفتح دون أن أرى أحداً، كأنها علامة على انتهاء مدة الأسر والعقوبة ومنحي حرية الخروج أخيراً.

أمسكت قبضة الباب وبالفعل كان مفتوحاً لكنني كنت متردداً في الخروج، لكن فضولي كان أقوى مني فخرجت للصالة، لم أجد أحداً لذا بدأت البحث والنداء بصوتي الخائف.

أمي، أمي..

سمعت حركة من داخل المطبخ فاطمأن قلبي، ولكن حين وصلت إلى الباب كان هناك خالي وبيده كأس ماء.

ها، هل أنت سعيد في الخارج؟ لم أستطع الرد، بل تلعثمت قائلاً بخوف لم أستطع إخفاءه: أريد أمي.. أين أمي؟

أمك يا عزيزي ذهبت إلى السوق وستعود بعد قليل. لم يقتنع عقلي الصغير الحالم أن خالي أخرجني عن طيب نية، وقررت العودة إلى الغرفة لحين عودة أمي، فمنعني من مغادرة الصالة وبدأ يحدثني متظاهراً باللطف، لكن هناك شيء متبلد مخيف في عينيه لا يعكس أبداً طيبته المزعومة.

السجن للصغار بشع لذلك تكلمت مع والدك ليعفو عنك فلا تخف.

بقيت صامتاً أحاول النظر في شيء آخر لأشتت تفكيري عن عينيه.

عندما تعود والدتك سنخرج جميعاً في نزهة في هذا الجو الجميل، لأنك مهذب ويجب أن تكافأ.

بالفعل كنت مهذباً، منذ البداية كنت مجرد طفل غارق في أحلامه الصغيرة الكثيرة، لكن ما سبب ابتساماته الساخرة الصفراء سابقاً؟!

هل أنت سعيد؟!

لم أجب أيضاً لكنني أومأت برأسي كجواب على السؤال، وبعد قليل من الوقت تجرأت على تخفيف حذري منه والتجول في الصالة وكأني أكتشفها من جديد بعد أن أنساني الأسر شكل بعض الأثاث الموضوع فيها، وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل والدي، ولوهلة تجمدت مكاني لكن كلام خالي سابقاً هدأ من روعي قليلاً، فقد صفح أبي عني وأنا غير معاقب الآن.

توجه أبي نحوي وأمسك يدي بقسوة وبدأ بالاستجواب: من فتح لك باب الغرفة؟

باغتني السؤال الذي لم أتوقعه أبداً، ماذا يقصد؟ هو سمح لي بالخروج.. كانت الكثير من الأسئلة تدور في رأسي الصغير فلم أتفوه بحرف واحد.

أين والدتك؟

نظرتُ إلى خالي منتظراً أن يتدخل ليخفف عني كل هذه الأسئلة، لكنه اكتفى بالمراقبة فقط.

هل أصبحت أصم؟!!

لا تزال الصدمة تمنعني من الكلام، فاتجه نحو خالي ليطرح عليه الأسئلة ذواتها.

هل تعلم أين هي؟

نعم خرجت لإحضار بعض الحاجيات وأظنها في طريق العودة الآن.

ومن فتح له باب الغرفة؟

أنا فتحته لأنه ظل يطرق الباب للذهاب للحمام لكنه لم يذهب إليه وبقي هنا في الصالة غير راض بالعودة إلى الغرفة.

كان رده بارداً ومقنعاً للغاية مما جعل أبي يغضب بشكل جنوني ويتجه نحوي وحينها انحلت عقدة لساني، ولكن بعد فوات الأوان

لا.. لا

كنت أقولها وأشير إلى خالي بيدي وبعيني لكن دون فائدة لأن الوحش الذي ينهش جسدي الآن لن يتوقف حتى يشبع جوعه.

" هكذا رأيتها أنا وهكذا عاشها جاسم الصغير"

ترافق الدموع سقوطي وتتسارع ضربات قلبي وأتابع سرد الذكريات.

قلت لك أن تعود لغرفتك، هذا جزاء الطفل العنيد.

يشعل خالي حماس أبي ليستمر في ضربي بجنون

لا أعلم من أين جاءت تلك الوحشية الغامضة وانفجرت في وجهي، ولا أعلم منذ متى كان الوحش مختبئاً خلف النظرة الهادئة والقبلة الحنون التي صارت سامة جداً.

لم يتوقف أبي عن ضربي حتى تعب، وأنا ملقى على الأرض أتقلب من الألم شعرت بيديه المتعرقتين تحملانني إلى الغرفة ثم ترميان جسدي المحطم على السرير كأنني قطعة أثاث، لم أقو على البكاء بصوت عال رغم أن الدموع كانت لا تزال تنزل من عيني بغزارة، فرعب الصدمة والتفكير في وحشية أبي جعلا

فمي لوحة صامتة بأصوات تسمع في هلع النظرات.
سأجعل من جلدك غطاءً للطاولة إذا رأيتك تخرج
دون إذن من غرفتك أيها الشقي.

ثم خرج وأغلق الباب خلفه، وفي تلك اللحظة دخلت

أمي وسمعت صوتها تتكلم مع خالي: ما الذي حدث؟
هل خرج جاسم؟

نعم يا أختي وللأسف ابنك شقي للغاية فقد خرج

واستمر في إزعاجي والركض في أرجاء المكان.

هل فعل ذلك حقاً؟!

لولا دخول زوجك لدمر الأثاث.

هل ضربه؟!

بعض الضربات التي ستصنع منه رجلاً لا تقلقي.

إنه مجرد طفل، لم كل هذا التعنيف والضرب؟

تدخل أبي قائلاً: كنت دائمة الشكوى من تربيته والآن
تريدين أن أكف عن ضربه إنه فتى ذكي يمكن أن يفهم
بالحوار.

ذكي!!

يتدخل خالي في الحوار الدائر ليضفي لمسته السامة على سياق الحديث، وتابع: إن طفلك لا يرتقي لمستوى الذكاء أبداً، بل هو أحمق.

لا تتكلم عن ابني بهذه الطريقة يا حسين

حسناً.. حسناً، كما تريدين.

واختفى صوت أبي في ظل تلك الجلبة.

يوماً بعد يوم، تضيق ملابسي وتضيق معها أحلامي وأنا أقضي يومي على النافذة مراقباً الأطفال الذين يلعبون الكرة على الرصيف المقابل في الخارج، كنت أشاركهم اللعب في خيالي الواسع وأطلب من النخلة أن تشارك بدلاً مني في التقاط الكرة أو أن تصفق لهم بكل أوراقها لتعبر عن فرحي بمشاهدتهم. لا أعلم كم مضى علي في سجني، كل ما كنت ألاحظه أن شعري أصبح طويلاً لدرجة صار مزعجاً لي ولأبي الذي يريدني أن أكون رجلاً، لكن هذا الانزعاج أصبح نعمة بعد أن تلاه الحديث التالي: مظهره أصبح مزعجاً، فأنا لم أنجب فتاة!

خذه إذاً إلى الحلاق.

سآخذه في قادم الأيام إن لم يقم بأي حركة غبية

وإلا فسأقصه بنفسي.

تراجعت بسرعة عن الباب الذي كنت أسترق السمع منه ذاك الباب الذي كان إذاعتي ومسرحي ثم استلقيت على السرير لئلا أقوم بأي فعل متهور وخارج عن المألوف، ولكن لم أعد أعلم كيف تكون التصرفات الصحيحة فكل ما كان عادياً سابقاً أصبح الآن سبباً لعقابي، واللافت أني لم أعد أشعر بالحنين للنسخة القديمة من أبي أو الحاجة للقبلة والعاطفة، لأنني مكتف بعزلتي وعالمي الخيالي الجميل، كما أني حين كنت أرى أحد الآباء يقترب من طفله ببساطة دون أن يقوم ذلك الطفل بأي ردة فعل ويتبادلان الضحك والقبلات وأحياناً يلعبان معاً، كنت أشفق على ذلك الرجل الكبير الذي أضاع خشونته وهيبته وراح يركض كالطفل المجنون.

يجب أن أظل هادئاً.

قلت لنفسي متسمراً على السرير عسى الوقت يمضي أسرع حتى يحين موعد الحلاقة، فالخروج من الغرفة هو بمثابة إعلان انتصاري أخيراً، لكن يجب أن أستجمع قوتي لأتمكن من تجميع أكبر قدر ممكن من

الأصوات والوجوه والضحكات لأستخدمها في خيالاتي القادمة، كما أني لا أعلم أن كانت النخلة ستتعرف علي من جديد بعد الانقطاع الطويل.

عبرت الكثير من الأفكار داخل رأسي وتبدلت مشاعري بين خوف وفرح وحماس، بين رهبة الخروج والتحصن داخل غرفتي والامتناع عن مواجهة العالم لكن الوقت كان يمضي ببطء قاتل وأبي لم يحدد موعداً للإفراج عني لذا كان علي فعل شيء يشبع فضولي ويساعدني على معرفة الموعد، فجربت الاستماع إلى الباب طوال الوقت والتركيز في أحاديث الكبار المملة عن الطقس والعمل لعل اسمي يعبر بينها، وحين يحين وقت الطعام تدخله لي أمي بعين مكسورة كأنها خجلة من النظر إلي لما سببته دون قصد أو ربما تصدق رواية خالي وأصبحت تكرهني الآن، لكنني لم أبال إلا بمحاولة لفت انتباهها الشعري وحكه بقسوة علها تخبرني بموعد الحلاقة أو تعيد سؤال والدي عن الأمر، لكنها لم تتأثر بتصرفاتي.

كما جربت أن أكلم أبي بالأمر وأنا ذاهب للحمام لكن كنت أتلعثم في حديثي بشكل يجعل خالي يضحك

بشدة ويطلب مني أن أعيد طلبي فيعيد الضحك مرة أخرى، وكان أبي يتشارك الضحك معه أحياناً ثم يحاول تخفيف هزلية الموقف ويطلب مني الذهاب على الفور إلى الغرفة.

"هل يعقل أن يصبح الطفل مهرج والده؟ أي جنون عشته في طفولتي يا الله؟"

لم أعلم أن القادم سيكون أسوأ لذا تابعت سرد المشاهد وأنا عالق في الزمن والظلام يحيط بي من كل صوب، بينما جاسم الصغير يجرب آخر الحلول للفرار إلى النور مثلي.

ما هذه الرائحة؟

قال أبي قبل أن تتجه أمي إلى غرفتي لمعرفة ما يجري، كنت قد سرقت دون أن ينتبه أحد علبة كبريت لإحراق جزء من شعري عسى أن يسوء منظره بشكل أكبر ويضطر أبي في النهاية لأخذي للحلاق وتنجح خطتي.

جاسم ماذا تفعل؟

ركضت أمي مرتعبة وأخذت عود الثقاب المشتعل من يدي وأطفأت عود ثقاب آخر كان قد سقط على

السجادة وأحرق بعض خيوطها لتملأ الرائحة المكان بينما احترق جزء من شعري في الأعلى وهو ما كان مطلوباً، لكني لم أعرف حجم المصيبة القادمة إلا حين دخل أبي على إثر صوت أمي.

تشعل النار في الغرفة أيها الشقي!

حاولت أمي احتضاني وحمايتي من غضبه لكنه أبعدها عني وألقاها على الأرض وانهال علي ضرباً مبرحاً.

تريد أن تحرق المكان يا غبي، سأجعلك عبرة لكل الأشقياء.

استمر بضربي على وجهي ورأسي وكامل جسدي حتى أغمي علي من الألم والخوف ولم أعلم ما جرى بعد ذلك، واستيقظت على صوت غريب ينادي باسمي.

جاسم هل أنت بخير؟

يبدو أنه يصحو أيها الطبيب.

ماذا حصل بالضبط معه؟

سقط عن السلم وأغمي عليه.

كان أبي هادئاً ومحنكاً في حبك مسرحية خداع كبيرة وفضل الكذب على الاعتراف بضربي أمام الطبيب،

كان يسرد الحادثة كأنها الحقيقة وتفاعل معها بشكل مريب لدرجة أنه أمسك يدي بقوة وناداني باسمي متمنياً لي الشفاء.

انتهى الطبيب من معاينتي دون أن ينتبه للنار التي أحرقت شعري كم كنت أتمنى لو أنه انتبه وأخبرهم أنني بحاجة للحلاقة، لكن للأسف غادر الطبيب بعد أن ترك ورقة كتب عليها بعض الأدوية وانطلق إلى حريته.

عم الهدوء المكان وجلست أمي بجانبي بعيونها الخائفة الغارقة بالدموع، كنت أشعر بتورم وجهي والضمادات الملفوفة على رأسي لكنني لا أستطيع تفقدها لأن كل جزء من جسدي محطم.

لم فعلت هذا يا عزيزي؟ ألم تتعلم بعد؟ ألا تذكر قسوته؟ الله وحده يعلم كم سيستمر عقابك الآن.

وضعت يديها على رأسها وكأنها تحاول عصر أفكارها لإيجاد حل ينقذني من هذا المكان، لكنني أعلم أنها لا تجرؤ على الوقوف بوجهه، بل تكتفي بالشكوى فقط، تلك الشكوى التي أوصلتني دون قصد منها إلى ما أنا عليه الآن، بقيت بقربي طوال فترة إصابتي بينما

كنت ألقي على أبي نظرةً خاطفة من تحت الضمادة حين تفتح أمي الباب، يجلس مع خالي أو يقرأ بعض الصحف كأن الأمر لا يعنيه بتاتاً.

حين بدأت بالتحسن صار يتردد خالي لغرفتي وينظر لي دون أن يتحدث معي ويلتف ويعاود أدراجه، كان جاهزاً طوال الوقت للضحك والمرح حيث كنت أسمع أحاديثه الساخرة عن زملائه في العمل، وكأنه يرى نفسه أفضل من الجميع.

حاولت الاستمرار في ادعاء التعب قدر المستطاع لأنني خشيت أن يعاود أبي أذيتي؛ فقد كنت أسمعه وهو يسأل أمي عن حالتي في بعض الأوقات لكنها كانت تماطل في أجوبتها وتبعده عني قدر الإمكان، لكن إلى متى سأبقى جليس الفراش؟ فقد اشتقت للنافذة والمسرحي الصامت في الخارج.

نجحت ذات مرة بالتسلل إلى النافذة بعد أن غادر والدي المنزل للعمل، كانت لحظات رائعة فالجو مشمس ودافئ والناس يعبرون أمامي وحدهم وأحياناً برفقة أطفالهم يرسمون الضحكات الحقيقية، وكأن الحياة تحتفل بي بعد طول غياب، فأمضيت وقتاً

طويلاً شارد الذهن سعيداً وحذراً أراقب الطريق خشية عودة والدي من العمل.

رأيتك!!

سمعت صوت خالي متباهياً بضحكته السامة المعتادة مما أجفلني بشدة، لم أنتبه لوجوده في المنزل الذي يبدو وكأنه صار مقيماً فيه وضيفاً ثقيلاً لا يحتمل، ثم استمر بالضحك على خوفي وأغلق الباب وخرج، وفي لحظة واحدة قفزت من الكرسي إلى السرير أرتجف بشدة لتبدأ بعدها في عقلي سلسلة أفكار مرعبة محاولاً توقع ما سيجري ما أن يعود أبي، فكان صوت فتح الباب.. أي باب بمثابة ألم يجعل جسدي يرتعش بقوة فتتسارع دقات قلبي وأبكي دون سبب.

معه حق، كيف سأصبح رجلاً وأنا أبكي كالأطفال الصغار؟

قلت لنفسي دون أن أتلعثم كمحاولة لتخفيف خوفي وصرف ذهني عن الأبواب التي تطيل شقائي.

أهلاً بصهري العزيز لدي لك خبر جميل.

اللعنة على الأخبار الجيدة.. لا شيء جيد، فماذا هناك؟

إنه جاسم.

ماذا به؟

لقد شفي، وكان يتبختر اليوم في غرفته ويلعب.

توقفت أنفاسي وسمعت ضربات قلبي في أذني وكأن الزمن توقف.

لم كان خالي يصر على التحريض الدائم ضدي؟ ما الجرم الذي افتعلته بحقه حتى يزيد معاناتي وينهي طفولتي التي لا ذنب لها سوى أنها وجدت في هذا "السجن اللعين؟"

لقد علقت رفقة نسختي المصغرة في الزمن، لكن وبعكس جاسم الصغير لديه القدرة على الإفلات من مخالب الانتظار لأن هناك من يبحث عنه بشدة، أنا ما زلت تائهاً أسرد بقية الحكاية وحدي.

جاسم انهض يا عزيزي يريد والدك رؤيتك. صوت أمي العذب كان حبل نجاتي الدائم، لكنني لم أحرك ساكناً فلا أريد الخروج ومقابلته أو بالأحرى لا أقوى على الوقوف من شدة الخوف، لكنها أصرت على

الأمر بصوت يرتعد أيضاً: قم يا عزيزي قبل أن يغضب منك والدك.

تحاملت على خوفي ووجهي اصفر كثمرة الليمون لأنني خشيت عليها هي الأخرى من بطشه، وخرجت وأنا أحتمي بها وأستند على بعض الأثاث المحيط كي لا أسقط إلى أن وصلت إليه، كان ينظر إلي دون أي تعبير على وجهه وكأنه لوحة لوحش أسطوري في مسرحية مخيفة.

تعال.

أمسكتني أمي لأقف أمامها لكن قدمي ترفضان التحرك.

هل تريدني أن آتي عندك؟

قالها مع ابتسامة خفيفة تخفي الكثير من العنف والشتائم، فأجبرت نفسي على التقدم نحوه وخالي يتابع المشهد متحمساً لما سيحصل وكأنه على علم بالآتي، فمشيت بتثاقل كبير حتى صرت أمامه ورأسي للأسفل أخشى النظر في عينيه، بهيئة توحي وكأنني طفل يعيش في الغابة.

شعرك يحتاج للعناية يا جاسم، فهذا الشكل لا يليق

لوهلة شعرت بنشوة كبيرة وبرودة لفحت جسدي بالكامل وأنا أسمع تلك الكلمات، لكن الفكرة تلاشت فوراً حين أمسك رأسي بقوة وشد شعري الطويل المحترق وأمسك مقصاً كان بجانبه وبدأ بالقص، لم أجرؤ على التحرك أبداً أما الدموع فكانت أشجع مني

فقد تحركت بقوة وهربت من جسدي الملعون.

هكذا صار أجمل، ألم أقل لك لا داعي لأخذه للحلاق.

يقول خالي الذي تبين أنه صاحب هذه الفكرة الوحشية.

اغسلي رأسه ونظفي هذا الشعر القذر.

حاضر.

لم أعهدها جبانة إلى هذا الحد، كأن الخوف يتغذى عليها أيضاً ويستهلك طاقتها فلم تعد تملك القدرة على المقاومة، فمشيت معها وتركت خلفي خيبتي وأجزاء من شعري المقهور، ووصلنا إلى الحمام فخلعت ملابسي القذرة وأزالت بالماء والصابون كل الشعر المقصوص ثم أوصلتني للغرفة وغادرت دون أن تتكلم أو تتضامن قليلاً معي بينما استمر صوت خالي بالتملق والضحك في الخارج، أما أنا فركضت

للمرآة لأشاهد الخراب الحاصل في رأسي والخطوط الطولية والعرضية لذلك المقص الغبي، فتمنيت في تلك اللحظة لو أحرقته كله لئلا أرى هذا المنظر المخيب للآمال.

القليل من الحنان يصنع المعجزات، لكن في حالتي الكثير منه لن يكفي انكساري"

ما أصعب دور المراقب في حكايتي الخاصة، لا أستطيع تغيير الأمور وأكتفي بلفظ الألم من الذكرى على الأمور تأخذ منحى أفضل يوضح سبب كل معاناة عشتها لاحقاً، ليت مها تعود لرشدها وتنقذني من هذا السقوط الأعمى ومن وجع جاسم الصغير.

أيقظيه وأحضريه لي.

فتح الباب على وقع تلك الكلمات فقد كنت صاحياً قبلها، ولكنني أغرق في الانتظار على الاثنين يخرجان من المنزل وأنطلق في أرجاء خيالي عبر أخاديد الغرفة وتفاصيل الباب والنافذة وأحك جسدي كالقطة الأليفة في الجدران لأمتلئ برائحتي الجديدة بعد الاستحمام.

صباح الخير يا عزيزي، تعال إلى والدك.

لقد قص شعري وجلدني وتكسر جسدي على يديه ماذا يريد أن يفعل أيضاً؟ حاولت التمنع عن الذهاب لكنها أصرت بشكل هستيري.

توترت أمي وسحبتني من السرير بسرعة، وشعرت بالدفء يملأ وجهي بدموع صباحية جاءت دون موعد سابق، فمسحت دموعي بيدي وانطلقت إلى حيث لا أدري ماذا ينتظرني وكنت متأهباً لتلقي الضرب والتعنيف، لدرجة وقفت أمامه دون أن أخفض رأسي هذه المرة واثقاً من تحملي للمرارة القادمة.

- ما هذا الشكل؟ ألبسيه بشكل أفضل أريد أن آخذه إلى الشيخ.

توسعت حدقتاي وعيناي وقلبي فأنا ذاهب للخارج أخيراً، تراجعت إلى الخلف وأخذت أرتطم بالأشياء من الحماس.

تمهل أيها الشقي، ما زال الوقت مبكراً على الإزعاج. ارتطمت بخالي الذي دفعني بعنف للأمام لأنني دست قدمه دون قصد وهو قادم من خلفي، بينما كان أبي يلوح برأسه كدلالة على يأسه من تصرفاتي، لكن

خطئي الوحيد أني كنت فرحاً لأني سأرى العالم للمرة الأولى منذ أكثر من سنتين أو ثلاث، لا أعلم بالضبط كم مكثت داخل هذا السجن.

لم أمتلك ملابس للخروج من المنزل لأنه كان أمراً ملغي لذا كان طلب أبي بارتداء شيء أفضل غريباً، فأغلب ملابسي كانت عبارة عن البيجامات المخصصة للنوم.. أو التغييب المطلق عن الواقع، ساعدتني أمي التي انشغلت بتمتمة غير مفهومة على ارتداء أحدها والذي لم تظهر عليه علامات الاهتراء.

- الشيخ، لم يريد مقابلة الشيخ؟!

كانت إحدى تلك الجمل التي التقطتها وهي تهم بإخراجي، ومن فرط سعادتي لم أفكر بسبب خروجي فهذا حلم طويل قد تحقق، وحتى لو كان المكان هو منزل الشيخ الذي لا أعلم ماذا سيفعل بي وما هي ماهيته، ولكن مهما كانت النتيجة فهي أفضل من البقاء هنا، فهنا تموت ببطء شديد كل أحلامي البسيطة.

أشعر بالأسف عليك يا جاسم.

قال خالي تلك الكلمات ممسكاً بكتفي بقسوة وكأنه الوداع الأخير، لكن ادعاءه الخوف علي وابتسامته الصفراء لا يمكن أن يخفيا علي بعد أن فهمت حركاته ولغة جسده وأصبح الكذب الذي يتقن التواصل به أمراً بدهياً عندي، ولم أبال بما قاله فشد على كتفي بقوة أكثر لكنني تحملت اختباره الدنيء لئلا أفعل شيئاً أحمق يؤجل نجاتي، وبالفعل نجحت حين نادى أبي: تعال معي للخارج.

" (للخارج) ما أجملها من كلمة "

قلت في نفسي ومشيت بثقة النخلة قلبي يكاد يقفز من صدري ورائحة الليمون تضفي على احتكاك قدمي الناعمتين بالتراب نوعاً من السلام الدافئ وكأنني أمشي للمرة الأولى، صرت دون قصد أتعثر في هذه الطبيعة الجديدة التي كنت مأخوذاً بجمالها.

وصلنا إلى سيارة مخيفة ووقفت أمام زجاج النافذة لوهلة أتأمل وجهي الذي غابت عنه ملامح الطفولة، وخلفه ابتسامة خاطفة تخشى الظهور للعلن، لذا حاولت أن أشيح بنظري بعيداً حتى لا أفضح نفسي.

اصعد وأغلق الباب على مهلك.

فتح أبي الباب وجلست ساكناً لا أعلم ما القادم حين أدار السيارة صدر صوت مخيف كصوت وحش يريد افتراس كل شيء، وحين بدأنا بالتحرك أمسكت بالمقعد بكلتا يدي مرتعباً، الأمر الذي جعل أبي يزيد سرعته ثم يتوقف فجأة وكأنه يستمتع بخوفي ويريد إطالة الأمر أكثر لجعلي تسلية له على طول الطريق، استمر في لعبته تلك ترافق وجهه ضحكة عريضة مع بعض التوجيهات الحازمة.

تمسك، كن رجلاً، إن سقطت فسأرميك من السيارة.

كان كلامه أكثر رعباً من ترنح السيارة القوي، وتحولت نجاتي وانطلاقي للحرية لسجن أكثر إيلاماً وبشاعة بمساحة ضيقة خانقة لا تتجاوز المتر يتحكم فيها أبي بكل أدوات الخلاص وكم تمنيت أن أقفز منها في تلك اللحظات.

كان الطريق واسعاً وفارغاً إلا من بعض السيارات التي تعبر من هنا وهناك حاولت استجماع شتاتي والتركيز على حريتي وعلى الشيخ الذي سنلتقي به لكن التعذيب الذي لم يتوقف حتى الآن زاد معاناتي فلم أنتبه للشمس التي تعانق المنازل المطلة والأشجار

العالية، وفاتني الكثير من السلام والمتعة وأنا أتأرجح يميناً ويساراً بسرعة كبيرة، تلك المتعة التي توقفت مع طيران بعض الأدوات عن رفوف السيارة ثم توقف الزمن بعدها.

حين رأيت قطع زجاج تطفو أمامي مع صوت انفجار هائل يضفي على تسلية أبي جولة جديدة ذات مستوى رفيع من الترهيب الكبير، لكن الخوف تملكه أيضاً وكنت لأول مرة أرى تلك الملامح الغريبة على وجهه، وفجأةً اختفت الضوضاء وعم هدوء كبير لا يصدق، وكنت خاضعاً للهدوء الآني، لهذا السلام وهذه الراحة المشتهاة مع إسقاط النور القوي على كل شيء حولي ليصنع منه لوحة ناصعة البياض.
حين فتحت عيني بدت أطرافي أضخم ويدي تتمسك بيد أخرى غير واضحة المعالم لكنها ناعمة للغاية، وهناك طنين وألم في رأسي وأطرافي وكأنني خرجت من حادث سيارة للتو لكن لا أعلم أين أنا، لا أعلم سبب هذا الصداع الغريب.

لحظة!! هناك صدى لصوت قريب يشبه صوت أجهزة المستشفيات حين تكون محاصراً داخل أحد

الأسرة وتتنفس بمساعدة المعدات، حيث تشعر أنهم يدخلون الأوكسجين إلى رئتيك غصباً عنك لتحيا ويقيسون كل مؤشراتك الحيوية ثم يتهامسون ويغزون جسدك بالإبر المهدئة ثم يرحلون تاركين صدى خطواتهم خلفهم يعصر وحدتك.

يعود الصدى لكن هناك شيء عالق في ثناياه، كنداء شخص يختنق ويمد يده ليسحبني من السرير، لكن جسدي لا يستجيب ويتشبث بالنور وبالمعدات، واليد تحاول جاهدة أن تشدني نحوها.

هي ذاتها، النعومة نفسها باختلاف "القوة الهائلة" قلت لنفسي محاولاً استيعاب الأمر، فقد كانت يدها؛

يد مها بتفاصيلها الناعمة جداً لكن بقوة هائلة.

جاسم هات يدك، جاسم انظر إلي.

صدى صوتها صار واضحاً لكنني تائه في الزمن المتوقف وفي النور القوي، فأعادت تكرار كلامها ويدها تحاول سحبي بكل قوة، وبدأت الأمور تنقشع أكثر فالجدران المحيطة التي خفّ عنها النور صارت تنكشف أمامي الدماء تنزف من شقوقها، والصور المعلقة تمثل صوري بتواريخ مختلفة منذ ولادتي

وحتى الوقت الحاضر، وجميعها تنزف من العيون دماً قائماً.

- جاسم.. أتسمعني يا جاسم؟

قالت لي وأنا أصغي لصوت جاسم الصغير يهمس لي بأن لا أغادر، لكن ثمة شيء مريب في الصوت لا أعلم ماهيته، لذا فالأفضل أن أستسلم لصدى قلبي وأترك روحي تختار وجهتها.

لا تقلق أنت معي.

كنت بين يديها غارقاً بالدم، وجهي متهشم بقطع الزجاج التي ظل بعضها عالقاً تحت جلدي، وللوهلة الأولى لم أشعر بيدي وكأنها مشلولة، كنت محبطاً للغاية ربما لأني لم أعرف ختام تلك الرحلة في السيارة؛ كل الصور التي أذكرها هي سنو مراهقتي برفقة أمي الحنون وهي تقول لي إن أبي رحل إلى مكان أفضل وأحياناً تقول إنه غادر فقط حين أكثر الأسئلة عن طفولتي والوقت المتوقف المنسي فيها.

في محاولة استيعابي للحاضر، عادت بعض صوري للظهور وكأن شيئاً ما يتقصد إعادة سحبي إلى حيث كنت فحاولت النهوض بأقصى ما استطعت برغم كل

الألم الذي يمزق جسدي.

ساعديني، أرجوك.

أنا معك.

قالتها بثقة كأنها كانت تعلم ماهية ما يحدث وتتدرب على محاربته أثناء غيابي، ثم فجأة بدأت تتمتم بعض التعاويذ وهي تنظر إلى شيء أسود في الزاوية يحاول الانقضاض عليها ولكنها كانت تقاومه بشراسة، وتمد يدها نحوه كأنها سيف تريد أن تزرعه في قلبه، ثم اشتعل المكان بالنار.. بالغبار بالكثير من الأشياء التي تتطاير، بينما تعويذة مها تمنع أي شيء من الاقتراب صوبنا وتحمينا بشدة، وراحت تتمتم كلمات أخرى جعلت الغرفة تهتز لقوة تأثيرها وفجرت المكان بطقطقة أصابعها؛ ليفتح في الجدار ثقب هائل ويلتهم ذاك الكائن الدخاني الأسود الذي صار يطلق أصواتاً مرعبةً وهو يُسحب للداخل بكل قوة قبل أن يغلق ذلك الثقب وتسقط كل الأغراض والزجاج الذي كان يتطاير مرة أخرى، وتتبعها مها منهكة وغائبة عن الوعي تماماً والدماء تسيل من أنفها وأذنيها.

أنت النور الذي أعادني من الظلام، أنت قوية جداً. لم تكن لي قوة تكفي لأهمس أكثر من تلك الكلمات وأنا مرمي بالقرب منها أحاول تحريك جسدي والاقتراب لضمها والاطمئنان عليها، وتابعت زحفي بكل ما أوتيت من القوة وأدعو الله أن تنجو فلا طاقة لي على الحياة من بعدها، وحين وصلت همست من جديد

هيا يا مها، لقد خضت معركةً مع الشياطين والجن وانتصرت عليهم يا عزيزتي، أعلم أنك لن تستسلمي

بسهولة، لأنني أشعر أن المزيد قادم.

لم أنه تلك الجملة حتى رمشت بعينيها كدليل على مقاومتها واستعدادها لنخوض القادم معاً مع يقين

كامل بالخلاص.

مع هدوء المكان أخيراً وانتشار الضوء في أنحاء الغرفة بدأت تتسلل إلى عروقي طاقة غريبة كأنني أرتشف النور من كامل أجزاء جسدي المتمدد على الأرض، ودبّت الحياة في أوصالي فتمكنت من الوقوف متكئاً على السرير بعد عدة محاولات بائسة، عيناي تطاردان الجدران التي تراجع الدم من شقوقها واختفت كل الصور مع بقاء بعض آثار البقع

المحترقة ومها لا تزال على الأرض بينما أحاول استجماع أفكاري وفصل أوهامي عن الواقع لأقوم بما يجب فعله.

مها، يا عزيزتي.. ردي علي.

شعرت أن صوتي لا يجدي نفعاً فاقتربت منها وأمسكت بيدها وتحسست جبينها، كانت حرارتها منخفضة جداً وجسدها يرتجف، حاولت أن أحملها لكن ذلك كان فوق طاقتي فاستجمعت قواي لأسحبها، وفجأة أحسست بشيء غريب يمشي عبر يدي ويلامسهما، كانت حرارته حارقة كشعل من النار

والضوء التي تشبك بيننا لتنقل طاقة قوية عن طريق

جسدي إليها، الأمر الذي جعلها تشهق بقوة كأنها عادت للحياة، ثم راحت تتحسس يديها والنور يتغلغل داخلهما ويسري عبر جسدها وهي مأخوذة بالمشهد بشكل كامل.

لا أعلم ماذا جرى ولم تحول كل هذا الشر الكامن بي إلى قدرة خارقة ذات مفعول سحري أعادت لي زوجتي الحبيبة، لم تصدق هي الأخرى ما حصل كما لم تستطع كبح دموعها واحتضاني.

أظن أن الأمر انتهى يا مها، انتهى هذا الجنون.

غصت بالدمع محاولة التعبير عما يجول في بالها:

أتمنى ذلك يا عزيزي، رغم أنني أشك بذلك. نظرنا حولنا وكان كل شيء محطماً، فكرت كم سيستغرق من الوقت إصلاح المنزل والعودة لروتين الحياة الطبيعية الذي اشتقت له، لم أتوقع يوماً أن أفتقد الروتين اليومي العديم الإثارة والمعنى لكن لا بأس، فمجرد وجود احتمال أن هذا الكابوس قد انتهى كان بمثابة فرصة أخرى لاستشعار طعم الحياة وطي

صفحات الماضي ثم التركيز على الأمور الجميلة الجارية وبالتأكيد الصلاة لله وشكره على السلام

والأمان اللذين لم أقدر نعمتهما قبلاً.

استجمعت مها أنفاسها وطاقتها ثم قالت معبرة عن

خوفها من عودة ذلك الكائن الظلامي ليعكر صفو حياتنا ويدمر كل شيء: ما رأيك أن نغير الحي؟ لا أعتقد أنني أقوى على العيش في هذا المنزل بعد الآن.

لكن ولأن الأمر لا يتعلق بالمنزل وحده قلت لها بهدوء: أنا السبب فيما حصل، كان الأمر متعلقاً بي

وبسوداوية أفكاري وخوفي من المواجهة ولن يجدي الهرب من المكان نفعاً.

لكنني أخشى عودته..

لا تخافي سنكون أقوى، خاصة بعد معرفتي سبب اقتحامه لحياتنا وأعدك أنني لن أتركك تصابين بأذى.

أمسكت يدي بقوة تريد أن تصدقني، لكن لا أحد فعلياً يعرف ما القادم وهل انتهى الأمر فعلاً أم ستكون هناك مواجهة أخرى أشد وطأة وجنوناً.

كان جسدي نابضاً بالحياة ولا يعبر عن الوقت الذي قضيته في الغرفة دون طعام وشراب حين كان ذاك الكائن يتغذى على جسدي وروحي، فلا أشعر بالجوع أو العطش الآن، بل أشعر أن جسدي يحتاج إلى نور الصباح المشبع بالحياة، وبالفعل استسلمت لنزعة البحث عن النور وسرتُ متكئاً على الجدار حتى وصلت إلى الخارج أستنشق رائحة الطبيعة، بينما انطلقت مها للتنظيف وإنقاذ ما يمكن إنقاذه في الغرفة.

عادت الحياة إلى طبيعتها بعد عدة أيام، لكن لم أفكر بالعودة إلى العمل أو حتى الاستفسار عن مسار الأمور

في غيابي، بل كل ما كان يشغل ذهني هو الاستفادة من نجاتي للبحث عن إجابات للنقاط العمياء في مراحل غامضة من طفولتي، وقررت محاولة التواصل مع أمي التي لم أزرها منذ فترة طويلة فكنت أكتفي بالاتصال بين الحين والآخر للاطمئنان، وكانت تخبرني أنها تعلم أنني بخير؛ لا أدري إن كان ذلك إحساس الأم فعلاً أم أنه مجرد قول مجازي، لأن الفترة الماضية كانت من أصعب أيام حياتي والتي لم تشعر أمي فيها بحجم معاناتي.

كانت الخطوة الأولى في بحثي هي إعادة الملمة قطع الأحجية التي تبدأ من الغرفة نفسها، وبدأت فعلاً بإصلاحها لترتيب القفزات الزمنية وتنظيم الأحداث بروية عَلَي أرى الأمور بشكل أوضح، كأنني أحرض ذاكرتي على قراءة قصتي كمراقب خارجي والتركيز على النقاط السوداء غير المفهومة فيها.

دهنت الجدران بلون أبيض وعلقت ستارة بيضاء أيضاً على النافذة مع المحافظة على ترتيب الأثاث لتعود الغرفة أفضل من السابق، حتى أن مها شعرت بالأمان مرةً أخرى وخففت محاولات إقناعي بالرحيل عن الحي.

بعد عدة أيام بدأت صور من طفولتي تراودني أثناء نومي، فكنت أرى شبحاً أو طيفاً بملامح تشبه خالي وهو يضحك بجنون وقد نَمَت له أنياب طويلة ومخالب متكسرة ويحفر في الأرض محاولاً نبش شيء ما، فكلما كان يصل إلى لحظة إيجاد الغرض المفقود كان ينظر نحوي فجأة وكأنه لاحظ وجودي فأفزع وأصحو من نومي مرتعباً، لأستوعب أنها مجرد أوهام وصور عالقة من الكيان الشرير الذي كان يقطن داخلي.. أو داخل الغرفة.

يمكن القول إنني اعتدت على الأمر لدرجة صرت أنتظر هذا الحلم محاولاً الاختباء جيداً كي لا يراني الوجه المخيف فأتمكن أخيراً من معرفة سر تلك الحفرة، لكن كنت أفشل دائماً في الاختباء فيجدني في النهاية وأضطر للهروب إلى الواقع.

يجب أن أخبرها.

قلت وأنا أحتسي فنجان قهوتي وحيداً في صباح يوم بدا بارداً بعض الشيء، فأنا لا أريد أن أخفي ما يحصل معي مثل المرة السابقة وأضطر لمواجهة مصير أعمى أجهل نهايته، لكن الوقت لم يسعفني

ذلك الصباح فقد قاطع تلك الفكرة صوت جرس الباب.

"من عساه يأتي في هذا الوقت الباكر؟!"

فكرت للحظات قبل أن أنهض وأفتح الباب وعلى وجهي معالم الانزعاج من هذا الزائر الثقيل، فأنا على ثقة أن زملائي في العمل لن تخطر في بالهم زيارتي والاطمئنان علي مهما كانت الأسباب.

مرحباً يا جاسم.

أهلاً.

علت على وجهي معالم الاستغراب ولم أتلفظ بكلمة أخرى فقد كان وجهه غايةً في السلام ويحمل ملامح تبعث على الراحة لدرجة أني شعرت كأنني أعرفه منذ زمن طويل رغم أنها المرة الأولى التي أقابله فيها.

تفضل.. تفضل.

رحبت به وسمحت له بدخول منزلي دون وعي، فقد كان بهي الطلة مما جعلني أسقط في فخ رتابته بلا تفكير، وجلس دون أن يتلفظ بكلمة وعيناه مسمرتان علي مع ابتسامة غير مفهومة لكنها مريحة للغاية،

فلم أقدر على سؤاله من هو وماذا يفعل هنا وكيف يعرف اسمي.

أنا أدريان.

خرجت مها في تلك اللحظة بعد أن سمعت صوت ذلك الغريب الذي يبدو أنه سحرها هي الأخرى، ووقفت تنصت إليه دون أن تقول شيئاً، فنقل حديثه إليها بمجرد خروجها وكأنه يعلم بخطوتها التالية.

سمعت بقصة زوجك وأنا هنا لأساعده، ربما تستغربان معرفتي بما حصل لكن لا يخفى علي شيء في عالم الأرواح.

كيف ذلك؟

تشجعت زوجتي وبدأت بطرح الأسئلة عليه، فكانت إجاباته دقيقةً وسريعةً كأنه يعلم الأسئلة مسبقاً.

في الحقيقة أنا محارب قادم من عالم آخر ألاحق الشر في كل مكان بهدف التخلص منه، وأجمعه لأقوم بأسره في مكان لا يمكن الوصول إليه حيث يبقى تحت أقبية مظلمة لا يخرج منها.

أي عالم تتحدث عنه؟

سألته مها محاولة استيعاب ما يقوله وتبادلنا نظرات الاستغراب.

إنه عالم غير مرئي موجود في طيات النور ويخرج منه المحاربون الأشداء للبحث عن الكائنات الظلامية حول العالم.

أتستطيع إذا القضاء على الكيان الشرير الذي يلاحقنا؟!

نعم، هذا هو سبب زيارتي لكما.

ابتسم ابتسامة خفيفة يريد بها إظهار ثقته الكبيرة بقدراته، لكنه يتكلم عن أمور أصعب من أن نفهمها أو نتدخل بها نحن البشر الضعفاء.

سأطلب منكما مرافقتي لنوقع به معاً.

أين سنرافقك؟

إلى المكان الذي يختبئ فيه، إلى ظلامه الخاص.

أفزعني طلبه، فهو يريدنا أن نلج إلى عالم الظلام الذي لا نعلم مدى خطورته، هل من الصحيح أن نثق بهذا الشخص الغريب رغم ملامحه التي توحي بالأمان؟

لا، لن نقوم بهذه المخاطرة.

قلت بحزم.

لا تقلق سأكون معك طوال الرحلة، ليس هناك سبيل آخر فأنت الوحيد القادر على فتح بوابة الشر لأنه يلاحقك وحدك وإلا لما طلبت منك مرافقتي.

إذا لم يجب على مها الذهاب أيضاً؟ لأنها وسيلة عودتك، وستفهم لاحقاً حين تفتح البوابة.

تكلم أدريان بثقة شديدة وقد عقد العزم على إدخالنا إلى عالم الأرواح الذي خرجنا منه بخسائر كبيرة في المرة السابقة، ولوهلة بدت الأمور مجنونة وغير منطقية فأغمضت عيني محاولاً إبعاد ذهني عما حولي وتفسير الأحداث على أنها مجرد سراب ينمو في خيالي الواسع حيث لا وجود لهذا الزائر الغريب ولا وجود لأي كيان يستوجب ملاحقته، لكن الواقع فرض نفسه من جديد حين بدأت بتحسس جسدي والأثاث حولي وكانت كلها حقيقة مجردة، إضافةً إلى أن مقارنة ما يقوله أدريان بكل ما حصل معي في الفترة الأخيرة تضفي منطقية على اقتراحه، والطاقة

المريحة التي تصدر عنه تبعث الاطمئنان في القلب وهي قادمة من مكان جيد بالتأكيد.

عم الهدوء المكان، لم نعلم ما يجب القيام به الآن فكل شيء يوحي بالحيرة والغموض وأدريان ينظر لكلينا نظرة العارف المتنبئ بالحدث.

لا تخف يا جاسم فقد عبرت المرحلة الأسوأ، والآن عليك أن تنصت جيداً لما سأقوله.

كسر أدريان الهدوء البارد ليدير باقي الحديث وحده، كانت عيناي تعبران عما يجول في فكري ودون أي حركة عرف أنني قبلت الإنصات له كأنني تحت تأثير مخدر.

أنا أفهم اعتقادك أنك تخلصت من ذلك الشر، لكنها للأسف كانت جولةً من معركة فقط وسيعود ليهاجمك بشكل أقوى وأشرس، لذا علينا الاستعداد جيداً قبل أن تفقد السيطرة على نفسك مرةً أخرى ويعود ليتحكم بمصيرك.

وكيف ذلك؟

بعد الولوج إلى عالمه بفضلك سأقوم بالقضاء عليه وأجنبك المعاناة التي ستعيشها إن بقي الشر طليقاً

حولك وفي منزلك، وهو بالتأكيد يحاول استعادة قوته الآن ولن يتوقع لحاقك به.

تعني أنك تريد أن نفاجئه؟ تماماً، حتى لا يتمكن من أذيتك مجدداً وأتمكن أنا من الإمساك به بسرعة وبخفة قبل أن يدرك وجودي.

لنفترض أن هذا الأمر صحيح، أنت تتحدث عن الذهاب خلفه إلى عقر داره، كيف نستطيع ذلك وما هو مصدر ثقتك الكبيرة بنجاح خطتنا؟

قلت تلك الكلمات ورعب شديد قد احتل جسدي وجعلني أرتعش متردداً في الموافقة على المقامرة

بحياتي وتسليم روحي وجسدي لهذا الزائر الغريب. كانت كل أسئلتي تُقابل بأجوبة سريعة فلا يترك لي أدريان مهرباً من خوض هذه المغامرة، حتى مها الغارقة في الاستماع لم تساعدني على اتخاذ أي قرار، كأنها عقدت اتفاقاً مبطناً معه.

أنا سأكون مرشدك وظلك لا تخف.

حاولت أن أهدئ من روعي قليلاً وأفكر بشكل أكثر عقلانية، فماذا سيحصل في أسوأ الأحوال؟ إن عاد لي ذلك الشر مرة أخرى فسأعرض مها التي أشقى محاولاً

حمايتها إلى جحيم التجربة تجربة قد تكون أشد مرارة علينا نحن الاثنين لذا خياري الأفضل هو وضع ثقتي بهذا الشخص المحب وتناسي مخاوفي. انقضى الوقت وجلست قرب مها نستمع بانتباه لخطة أدريان ويدي ممسكة يدها لتخفف وطأة القادم دون أن أشعرها بهلعي الشديد.

ثم أغمض عينيه وضم يديه إلى صدره، وفجأة خرج منه دخان أسود أحاط بنا واشتعلت يداه بنار سوداء مخيفة، تخبطت المشاعر داخلي وكان تأثير ما رأيته قوياً مما سبب لي صعوبة في التنفس، وحاولت أن أخبر مها بذلك لكن هي الأخرى كانت تمر بالأعراض ذواتها ولا تستطيع الكلام، حتى أن أطرافنا باتت شبه مشلولة ولا يمكننا الإحساس بشيء مطلقاً، أدركنا أن تلك هي علامات انتقالنا لعالم الشر الذي تحدث عنه أدريان لتفتح بعدها هالة ضخمة من لهب النار أسفلنا ونسقط بأقل من ثانية.

أين نحن؟ ماذا حصل؟

قالت مها بصوت يرتجف فشددت على يدها لأطمئنها قليلاً بعد ما تحققت من عودة الشعور لأطرافي.

أنا معك يا عزيزتي، لكن لا أعلم أين أدريان. بدأت بتحسس المكان محاولاً البحث عنه، كان الجدار الملاصق لي بارداً للغاية يقطر من شقوقه ماء ذو رائحة غريبة غير محببة، والأرض أمامنا ضبابية تخفي خلفها ضوءاً خافتاً قادماً من بعيد، حاولت مساعدة مها على النهوض لكنها لم تستطع الحراك الخوف احتل جسدها المرتجف الضعيف ويبدو أن أدريان الذي استمررت في نطق اسمه بصوت منخفض تركنا وحدنا.

ساعديني كي نبحث عن مخرج، هاتي يدك.

لا أقوى على ذلك.

أعلم أنك تستطيعين فعل ذلك، هيا يا عزيزتي.

ترنحت مها قليلاً قبل أن تأخذ نفساً عميقاً وتنهض متجاوزة خوفها، وانطلقنا نمشي باتجاه الضوء باحثين عن مخرج، لكن ما أن تحركنا حتى صارت الجدران التي نمشي بمحاذاتها تهتز استجمعت

تركيزي ووضعت الضوء نصب عيني واتجهت صوبه، ومشينا ببطء شديد غير مدركين لماهية المكان، والضوء لا يتغير كأننا واقفان مكاننا.

"اترك مها وانطلق وحدك خلفه"

جاء صوت أدريان قوياً يخترق الجدران جميعها لمساعدتي، كنت متردداً في تركها خلفي حيث تفوح رائحة الشر من كل مكان، لكنني قررت تحييد مشاعري والإنصات لصوت العقل فأدريان أعلم مني بما يحدث ويريد المساعدة بالتأكيد.

سأنطلق وحدي وأنت عليك البقاء هنا.

لا، لا لن أتركك.

إنها على حق، كيف نفترق في هذا الجزء المصيري من تجربتنا وقد دعمنا بعضنا بعضاً طوال الرحلة؟ أفهم خوفك لكنني سأكون على ما يرام لا تقلقي، يجب أن نثق بأدريان.

ترددت زوجتي كثيراً قبل أن تترك يدي، وانطلقت وحدي أنظر خلفي كل ثانية وهي تتابع خطواتي نحو المجهول، وبالفعل بدأت تتغير معالم الضوء بعد

بضع خطوات وأصبح أوضح لدرجة ظننته يقترب مني وأنا أقف في مكاني، ثم سمعت بعض الهمسات الغريبة فنظرت خلفي ورأيت مها واقفة قربي تبتسم للوهلة الأولى أجفلني وقوفها بهذا الشكل، كيف استطاعت الوصول إلي بتلك السرعة؟ ليس هناك جدوى من طرح الأسئلة الغريبة في عالم أكثر غرابة، اكتفيت بالتركيز على الشعور بالاطمئنان لأننا معاً مجدداً، في الوقت الذي بدأت تتوضح فيه معالم المكان أكثر مع انقشاع بعض الضباب عن الجدران المتعرقة السوداء، مددت يدي لأمسك يد مها ونتابع رحلتنا لكنني لم أستطع، كانت تمر يدي من خلالها كأنها مجرد سراب، في حين حافظت هي على ابتسامتها التي صارت مزعجة.

لم تبتسمين؟

لم تجب على السؤال كأنها تتقصد إثارة هلعي.

مها أجيبي رجاء، هل أنت بخير؟

أصبحت ابتسامتها أكثر ريبة وكثرت عن أسنانها التي كانت ملوثة بشيء أحمر يشبه الدم، لم أنه سؤالي حتى أخرجت من جيبها خنجراً وراحت تطعنني في كل

جزء من جسدي صرت أصيح من شدة الخوف والألم اللذين كنت أعيش كل لحظة منهما بمشاعر حقيقية للغاية، سقطت وارتطم رأسي بالأرض بقوة بينما جلست فوقي وتابعت تمزيق جسدي بشراهة حتى سكن المكان واختفى الألم فجأة وحل هدوء مريح.

فتحت عيني وحاولت استيعاب ما حصل، كانت مها قد اختفت ومعالم المكان قد تبدلت أنا الآن في غابة كثيفة الأشجار، والظلام يحيط بي ما عدا الضوء الخافت ذاته الذي يأتي من أكثر من مكان نهضت لأبحث عن مها وأنا أقول لنفسي بصوت عال: ما كان يجب أن أتركها ما كان يجب أن يحصل ذلك، أنا أحمق!

لم ينفعني جلد الذات بعد ما حصل، وإيجاد منفذ ينجيني من هذا المكان ثم الوصول إلى الكيان الشرير انطلقت عبر هشيم الغابة متوخياً الحذر في كل خطوة أقوم بها فقد كانت جذور الأشجار تخرج من الأرض والقضاء عليه هو أمر حاسم لا بد من القيام به.

وتتشابك كأنها فخاخ.

عبرت جسدي قشعريرة حين امتدت يد على كتفي ثم همس الصوت في أذني: لا تنظر إلى الأسفل، اتبع الضوء نحو الشجرة الكبيرة على يمينك.

اختفت اليد مع الصوت دون أن أعلم من كان لكنه لم يكن أدريان، واعتراني الفضول لأنظر للأسفل لكن قاومت قدر استطاعتي حتى أصل لتلك الشجرة الكبيرة عبرت بين الأغصان وبدأت أسمع أصوات صراخ مع إحساسي بأيد تمتد عبرها وتحاول إيقافي كنت على وشك الوصول للشجرة حين استوقفني صوت مها القادم من بين الأغصان يصرخ بألم جعلني أتيبس في مكاني، لم أعد قادراً على المضي للأمام شبراً واحداً.

أنقذني أرجوك.

كان صوتها الحنون يفتت القلب لكن يجب أن لا ألتفت للأسفل فقد يكون فخاً آخر، امتنعت عن النظر محاولاً التقدم أكثر حتى صارت الشجرة أمامي

مباشرة وخلفها الضوء، فحاولت الاستناد على جذعها كي أتخلص من الأغصان الشائكة العالقة بي. جاسم،

لقد سجنني أدريان وأنت متجه نحو فخ أرجوك ساعدني.

لم أستطع منع نفسي من النظر للأسفل، كان وجهها شاحباً ويدها التي ملأتها الجروح تمتد عبر الأغصان وتنزف بغزارة، وهي تغوص وتختنق بأحد الأغصان التي التفت حول رقبتها، وانتفض قلبي عند رؤية ألمها: "لا تتركها"، فارتميت فوقها محاولاً الإمساك بها لكنها ابتعدت للأسفل بسرعة، ثم صرخت بصوت عال لم يكن كافياً لتجنب الآتي: خلفك يا جاسم!!

نظرت للوراء لأرى أدريان وقد اختفت معالم وجهه المحب، وأصبحت ملامحه جامدة والتشققات ملأت جلده الأبيض وكأنه جثةً عادت من الموت، ولشدة الرعب الذي رأيته حاولت النهوض من المكان والركض بعيداً لكن جسدي كان عالقاً في تلك الأغصان التي صارت قيوداً لا يمكن الإفلات منها، وخطرت في ذهني الكثير من التساؤلات التي لا جواب لها، فمن هو أدريان؟ وكيف استطاع خداعنا بهذا الشكل وبث الطمأنينة داخلنا منذ لحظة لقائه الأولى؟

اقترب مني وأخذ يشم جسدي مثل حيوان مفترس يبحث عن مكان مناسب للانقضاض وخنق فريسته، ثم جمد فوق صدري مؤكداً أنه وجد ضالته، وأخذ مظهره يصبح أكثر بشاعة وقرفاً كأنه يتغذى على طاقتي حتى أن رائحته صارت مزيجاً من الدم والعفن، حاولت التملص منه وإبعاده عني لكن القيود التي تمنعني من الحركة كانت تتوغل داخلي وتمتص دمي ونظرات أدريان الشرهة لا تتوقف عن متابعة ما يجري لي. أصابني الدوار وبدأ نبضي يضعف، لكن الندم هو ما كان يقتلني وليس هجوم أدريان، فكل ما كان يجول في ذهني في تلك اللحظة هو حجم الألم الذي سببته لمها، غاليتي التي تنتظر أن أنقذها.

شعرت للحظة أن نوراً هائلاً سحبني من الظلام لأعود بعدها إلى المكان نفسه لكن طاقتي كانت أعلى وجسدي أقوى قليلاً، حاول النور إخراجي ثانية لكني عدت أقوى المحاولة الثالثة كانت أكثر وضوحاً بينما في المرة الرابعة تغير صوت أدريان المرعب فكان يزأر خلفي كأنه يكافح لمنعي من الهروب، توقف النور من محاولة سحبي لكن القوة التي كانت تنساب عبر جسدي جعلت عروقي تشع وأصبحت كافية لأتمكن

من الإفلات من القيود اللعينة وبالفعل تمزقت كل تلك الأغصان واحترقت متأثرة بدمي العالق عليها بعد ما تحول إلى نار بينما تحولت الأشجار حولي إلى شياطين وكيانات مرعبة تتلوى وتنتفض متسلقة الجدران السوداء التي تشققت وصارت تخرج شياطين أكثر عملت على حصاري لئلا أفكر في التقدم خطوة للأمام، ثم علا صوت أدريان مما جعل الشياطين تسكن في مكانها ليعم الهدوء فاسحاً المجال له لإخافتي وإجباري على الخضوع

لا تحاول يا جاسم كنت أنتظر اللحظة التي تضعف بها حتى آخذ قوتك التي هي من حقي.

لم أعلم عم كان يتحدث فسألته مستغرباً: عن أي قوة تتحدث؟

سكن قليلاً ثم عاد صوته بقوة واهتزت الأرض بشدة

قوة النور بداخلك من حقي، كان يجب أن تكون لي لا لمخلوق أرضي هزيل ووضيع مثلك!!

أنهى كلامه موجهاً طاقته الشريرة نحوي لأسقط

على الأرض من هول قوتها، وتتحرك الشياطين محاولة الانقضاض علي.

أحبط النور الذي اتقد داخلي محاولات هجومها واكتفت بالالتفاف حولي وإبراز أنيابها لكن ذلك لم يمنعني من النهوض ومتابعة المسير إلى الضوء القابع في نهاية الطريق.

ساعدني، أرجوك.

أوقفني صوت مها التي أسرتها الشياطين محاولةً إضعاف عزيمتي عن التقدم. "كيف يمكن أن أجازف بتركها ؟ هل هي فعلاً مها أم خدعة أخرى من أدريان؟ وهل بوصولي للضوء سينتهي هذا الكابوس فعلاً؟" عبرت في ذهني الكثير من التخيلات والتفسيرات وخشيت أن أخطئ مجدداً في تفضيل مها وتفشل محاولاتي في إنقاذنا، لكن الصوت عاد مجدداً ليكرر الرجاء: جاسم، لا تتركني أرجوك لقد قطعت وعداً بذلك! هذه ليست مها لا أعرف كيف تيقنت ذلك لكن مها التي أعرفها جيداً لن توقفني عن متابعة طريقي وستضحي بنفسها في سبيل نجاتي كما كنت سأفعل بالتأكيد وسأدفعها إلى الأمام بكل ما أوتيت من حب.

عقدت العزم على الوصول متجاهلاً كل مخاوفي التي حاولت الشياطين استخدامها ضدي لإرباكي كانت تظهر تارةً بصورة أبي وهو يجلدني على النخلة، وتارة بنسختي المصغرة في السجن المحصن بحراسته

المشددة وابتسامة خالي الصفراء. "كيف لطفل عانى أشد أنواع القسوة أن يجرؤ على

كسر هذا الحصار؟ ربما أستطيع إيجاد ممري الخاص عبر السجن الجديد القديم فالتفاصيل متشابهة بزمن مختلف مع شياطين أكثر واقعية يمكن إسقاطها"

قلت لنفسي وأنا أتكئ على الجدار مشيحاً بنظري عن كل الصور التي استمرت بالظهور حولي، وقد بان الضوء أخيراً قريباً وقوياً مثل مدخل لممر طويل لا نهاية له، وما أن وصلت أمامه حتى لاح من الداخل خيال شخص مقنع ومتشح بالسواد قادماً نحوي بسرعة، وقفت مذهولاً أحاول معرفة هويته لكن قبل أن أتعرف عليه تلاشى الضوء وحل ظلام كثيف، دب الرعب في وحاولت التركيز على صوت أقدامه لتحديد مكانه، كانت ضربات قلبي تتسارع مع كل

خطوة يخطوها ولا أعرف ماذا يجري فعيناي لا تبصران شيئاً، كنت أعمى تماماً بينما صوت الخطوات يعلو ويقترب.

وازداد غضبي ونما الوحش بداخلي بسرعة أكبر فرحت أهز جسده بقوة حتى كشفت ساعدان ناعمتان وسقط القناع وبان الوجه الدافئ أخيراً وظهرت الحقيقة المؤلمة، كان الوضع جنونياً لم أستطع السيطرة على دموعي وأجفلت متراجعاً للخلف والذعر يملأ قلبي.

أنا آسف.. أنا آسف!

بدأت بلطم نفسي وضرب رأسي بالجدار بعد أن قتلت زوجتي، سيطرت انفعالاتي علي ولم أفكر كيف ولماذا جاءت متخفية بهذا الشكل.

إنها المرة الثانية، ساعدني يا الله.

حاولت تحريكها لكنها لم تستجب، وأمسكت يديها لكن لم يتغير شيء، لم تضئ عروقي بذلك النور الغامض على أمل إنقاذها مجدداً، وكيف له أن يعود وقد تلوثت يداي بأبشع جريمة يمكن أن يقترفها إنسان، وجن جنوني صارخاً بأقصى ما يستطيع قلبي

المتعب: أنا قاتل، أنا مجرم، لا حياة بعدك يا عزيزتي لا حياة. والدماء تسير من رأسي ويداي تضربان الجدران حولي بكل عنف، وبلحظة وعي نظرت حولي باحثاً عن سبب مصيبتي، عن أدريان: أين أنت أيها اللعين؟ سأمزقك أيها الشيطان أين تختبئ أيها الجرذ الجبان.

ظهر الممر المضيء من جديد، يتقدم عبره شبح ضخم عرفته فوراً من رائحته القذرة، وقال بهدوء من يعرف أنه وصل إلى مبتغاه كان لا بد من هذا الأمر كي تستسلم وتخضع.

سأقتلك أيها اللعين!

هجمت عليه بكل ما أوتيت من قوة لكني كنت أحارب شبحاً من دخان لا يمكن إصابته فلم أستطع التأثير به أبداً رغم جميع محاولاتي.

ألم تكتف من القتال؟ استسلم وكفاك مقاومة أيها البشري البائس.

لم أتوقف عن محاولة الإمساك به أو حتى لمسه ونما الغضب داخلي أكثر وأكثر وصرت أرمي بنفسي عليه وأرتطم بالجدران بعد أن يختفي كيانه الدخاني بكل

خفة مع بعض القهقهات التي يصدرها دلالة على سطوته وقوته، لا أعلم لماذا لم ينه عذابي بعد وهو يملك كل تلك القوة الخارقة التي جعلتني أقتل زوجتي بيدي، هل ينتظر استسلامي ليتلذذ بضعفي؟ أو ربما يريد قتلي ليحتل جسدي؟ ربما كان هو السبب منذ البداية..

لمعت برأسي تلك الفكرة محاولاً ربط خيوط هذه المسرحية الهزلية التي صارت واضحة المعالم أخيراً، هو لا يستطيع المساس بي لذا عليه إجباري على تسليم نفسي للظلام، لكن ما سر ذلك النور الذي عاد يشع في عروقي؟!

"رأسي سينفجر "

استلقيت على الأرض قرب مها وأنا منهك شارد الذهن، بعض الهدوء المضرج بالدم لون أفكاري التي كانت تنزف من رأسي.

ساعدني يا الله، لقد نال مني الظلام.

كان رجاءً مجبولاً بالدمع جسدي متعب وعيناي جاحظتان على اتساع الظلام، تراءى لي جاسم

الصغير يقفز فوق جسدي ويضحك ويرمي علي أوراق الليمون لعل رائحتها اللاذعة تخفف عني رائحة الموت.

"ما أجمل الموت قرب أعز الناس على قلبي"

عادت رائحة أدريان تفوح في المكان وكأنه ينتهز اللحظة المناسبة ليسرق قوتي، كنت على يقين أنه لا يستطيع المساس بي ويخشى من شيء آخر داخلي لكنني لا أشعر به، لا توجد هنا سوى برودة المكان والخوف المرسوم على هيئة شياطين وجدران شاهقة نظرت حولي للمرة الأخيرة قبل أن يدور بي المكان وأغمض عيني فاقداً الوعي.

أشجار الليمون المزهرة تتمايل في نسائم منعشة، والسماء زرقاء صافية كبراءة الطفولة، أنا ألعب خارج المنزل وأبي يعد الفطور رفقة أمي ويتهامسان ويضحكان والسعادة تغمر هذا الصباح الجميل، حتى خالي كان ودوداً وهو يتقدم نحوي مبتسماً بلطف حقيقي يحمل بيديه طائرة بيضاء كبيرة وسفينة خضراء وصفراء، انطلقت ألعب بهما لمجرد اللعب فقط لا لأهرب من المكان.

أثناء لعبي بدأت قطرات الماء تنهمر على خدودي الممتلئة، لا غيوم في السماء لكن القطرات لا تتوقف عن الهطول، فانطلقت للمنزل ضاحكاً من غرابة الموقف أريد أن أخبر والدي الرائعين، لكنني لم أجدهما فقد اختفيا، وقطرات الماء لا تزال تنساب على وجهي داخل المنزل بشكل مريب، وبدأ الخوف يتملك قلبي الصغير وأنفاسي المتسارعة وشعرت باختناق كبير ويد تمتد من خلفي وتسحبني إلى المجهول.

كان وجهها مشرقاً للغاية تغلب عليه لهفتها الكبيرة وهي ترش وجهي بالماء: لقد استعدت وعيك أخيراً.

"كيف ذلك؟ لقد قتلتها بيدي"

انتفض قلبي من فرط سعادتي لكن جسدي المخدر منعني من استيعاب ما حصل، وشعرت ببعض الآلام حين حاولت النهوض من مكاني، فقلت دون تفكير أدريان!

لا تقلق أنت الآن معي.

كيف ذلك؟

قلت لك لا تقلق سأشرح لك كل شيء ما أن تتعافى.

أربكني التشويش في رأسي ولم أستطع التركيز فيما يدور حولي، عيناي مرهقتان وكل جزء من جسدي يؤلمني، أعلم أني لست في المنزل رغم تمددي على سريري، لكن كل ما تمكنت من رؤيته هو خيالات متموجة لباب دون مقبض ونافذة بقضبان خارجية وصور لأبي تتأرجح على الجدار ثم تقترب وتبتعد، لم أعلق له صوراً في المنزل ولا أملك واحدة حتى تخرج مها ثم تعود عبر الباب الذي كان يفتح وحده أمامها، ما زالت الصور المتموجة تعبث في رؤيتي فهي بمجرد ما أعادتني من غيبوبتي لم تعد تبالي بوجودي قربها رغم نظراتها الغريبة لي وهي تغير مكان الصور وتعود بعد وقت قصير لتعيدها مكانها، حتى صار هذا المشهد المكرر مزعجاً ولا أستطيع إشاحة نظري عنه كأنني صورة أخرى معلقة على الجدار.

مها، ماذا يحصل.. توقفي رجاء!

اقتربت مني قبل أن أنهي كلامي وبدأت بالصراخ في وجهي وعيناها تدمعان دماً: هذا خوفك لا شأن لي به كن رجلاً واقتله.

صعقني هجومها المباغت ولأول مرة تتخلى عن هدوئها وترفع صوتها بهذا الشكل، لم أدر ما يجب فعله في هذه اللحظة حيث لا قدرة لي على تحريك جسدي المخدر لأحتضنها وأطمئنها وأشرح لها ما يجري في داخلي فكل شيء حولي يتسم بالغرابة التي تجعلني أشتهي البكاء.

لا أعلم عن ماذا تتحدثين!

انظر حولك، انظر إلى جحيمك الذي أدخلته إلى

عالمنا انظر إلى الصور المعلقة، إلى أوجاعك وهروبك!

قالت وهي تتسمر أمامي والدماء تنهمر على خديها بطريقة موجعة، وتقطر على يدي الباردتين فشعرت بحرارتها وهي تحرق جلدي، لكن ما سر الصور المعلقة؟!

أخرجي تلك الصور من الغرفة لا أقوى على النظر إليها.

يجب عليك تحرير هذا الخوف!! عادت للصراخ والدماء تنهمر بشكل أكبر على وجهي وجسدي والنار

تتآكلني من الخارج والداخل بشكل لا يحتمل مما جعل صوتي ينفجر أيضاً: كفى كفى

تطاير الزجاج حولي كأن شيئاً انفجر داخل الغرفة، حتى وجهي البارد وجسدي المخدر تكسر عنهما الزجاج كأنني كنت مجرد صورة أيضاً، كانت شظايا الصور المتطايرة تحمل ذكريات متحركة من طفولتي، لا شيء يجمعها سوى الألم والتعذيب مشاهد من بؤس عظيم خط ألمه على طفولة لا ذنب لها أنها وجدت في منزل يتغذى على الخوف منزل لم ينبض بالفرح يوماً. صار جسدي قطعاً من الزجاج المنكسر الممزوج بكسرات الذكريات المترامية على طول الغرفة، قطع من أحجية يحتاج جمعها الكثير من الإرادة والتصالح مع الألم، ومضى الوقت وأجزائي المبعثرة المختلطة بالذكريات تكتفي بمراقبة الأحاسيس التي تعتمل داخل صدري بين غضب وحزن وحنين أعمى للعودة ومواجهة جميع مخاوفي والتخلص من الرعب الجاثم فوق صدري، وكان الوقت ثقيلاً من غادرت مها الغرفة غير مبالية بانكساري محملةً إياي مسؤولية اكتشاف الحقائق مجردة من الإحساس بالذنب أو بالشفقة، وكم كنت

بأمس الحاجة لتلك المواجهة للعثور على شغف ما في سراديب أوجاع الماضي.

"هنيئاً لي بهذه الرحلة، كان يجب أن أعرف طريقي وحدي فلا سبيل للنجاة سوى التقبل والمواجهة"

كانت أفكاري تسترسل في خوض التجربة، رغم أنني أجهل النهاية لكني لم أبال فلذة التحرر من الألم رائعة، تابعت ترتيب قطع الأحجية علي أجد فيها خلاصي وأصبح المشهد الكامل أوضح بعض الشيء، حتى أن عيني أخذتا بالخمول قليلاً كأنهما تتماهيان مع غروب الشمس الذي ظلل المكان ومسح المشاهد الجارية عن قطع الزجاج، انتهت سلسلة الأفكار وحل الظلام مجدداً مصحوباً ببعض الغيوم والبرق الذي ظهر فجأة معلناً توقف سلام اللحظات؛ ليهب بعده هواء جعل الستائر تتماوج على طول الجدار في مشهد رائع يضفي عليه رذاذ المطر الهاطل بعده الكثير من الجمال بينما أخذت نقاط المطر الملامسة للزجاج المنكسر تحاول انتشال الذكريات والصور العالقة في الحطام.

متى يحين دوري في هذه المكرمة؟ يجب على المطر أن يصل إلي كي أشفى من بؤسي"

مع اشتداد المطر كانت القطرة الأولى التي سقطت على جلدي كافية لتخلصني من سجني، وكان لتسارع ضربات قلبي وأنا أرتفع في الجو قشعريرة غريبة مترافقة ببرودة كبيرة في أطرافي، وكان الزمن يعود بي إلى الماضي وأنا أسقط عبر شريط طفولتي مع جزء كبير مشوش لا أستطيع تذكره.

استسلمت للهاوية والرذاذ يرتطم بوجهي بقوة حتى صارت القطرات سكاكين تغرز في جلدي، فاختلطت المشاهد أمامي ورأيت جسدي يصطدم بالزجاج مواجهاً لعنة القيادة المتهورة لأبي الذي تدارك في اللحظات الأخيرة ما فعله لكن بعد فوات الأوان فكل نظرات الندم التي أعطاني القدر الفرصة لأشاهدها تعلو ملامح وجهه الخائف لم تشف غليلي، حتى أصوات الفرامل والصرخات في الشارع والصدى الكبير للاصطدام كانت أقل من المطلوب ليشعر بوجعي، وها قد اختفت الأصوات وبقي طنين رهيب يخترق

أذني ويمتزج برائحة الكاوتشوك المحترق على الزفت يضفي عليه ضجيج الناس في السيارة المقابلة

المتهشمة نوعاً من الخاتمة للمشهد، ودار بي المكان

والدماء تنزف على المقعد الجلدي الفاخر بينما كانت يد أبي تمتد لتمسك يدي وتعتصرها بحرقة رأيتها تعلو وجهه كنوع من الاعتذار قبل أن أفقد الوعي أخيراً.

ما هو تقييمك؟

نبضه ضعيف، وتنفسه متسارع.

أعطه 10 مل بولوس بسرعة.

سمعت أصوات الأطباء وهم يحومون حول جسدي، بعضهم يجري وبعضهم يهمس وأصوات الأجهزة بقربي تمنعني من التركيز ولا أستطيع تحريك رأسي بعد أن قاموا بتثبيته بطريقة مزعجة، كنت أريد معرفة ماذا حل بأبي فلا دليل على وجوده هنا رغم أنني أشعر حتى الآن بيده تتحسس يدي بحب، لقد أظهر لي عطفه وانهالت علي قبلاته بنظرة واحدة كانت كفيلة باختصار وجع سنين حتى الأطباء الذين وقفوا فوق رأسي كانوا يشاركونني سعادتي بابتسامات

عريضة وهم يوجهون الضوء الساطع إلى عيني ويزيلون الشظايا التي كانت تقف عائقاً تمنعهما من الإغلاق.

صار النور أقوى وقطع الزجاج الأخيرة التي يزيلونها من عيني تعكس لونهما الدموي الذي بدأ يخفف حدة السطوع رويداً رويداً إلى أن اختفى الضوء تماماً وعادت البرودة تعبث بجسدي.

جاسم هل تسمعني! رائحة العفونة أعادتني للمكان الذي غادرته، وصوت مها الذي يحفر في القلب معنى الأمل يبقيني على قيد النجاة، وكانت تمسح الدماء عن وجهي وهي تهمس لي: أرجوك حاول أن تركز فأدريان يتجول في المكان ويجب أن نغادر بأي طريقة.

حاولت استيعاب الواقع الذي تشابه مع الوهم عندي أغمضت عيني وجلست أنصت للهدوء المخيم حولي لعلي أستعيد بعض تركيزي بينما أشير لمها بيدي كي لا تتكلم.

فعلاً سمعت دوي خطوات شخص ما يحوم حولنا، وعادت لي بعض القوة التي جعلتني أمسك يدها وأساعدها على النهوض.

هيا لنخرج عبر ذاك الضوء.

لا، لا نستطيع يا عزيزي

لم لا؟!

إنه فخ لكنني لا أتذكر تفاصيله فقد جئت عبره وكان الألم فظيعاً ولم أكن قادرة على إخبارك حين كان القناع الأسود على وجهي.

تذكرت لحظة خنقي لها وامتلأت عيناي بالدمع لكنها قاطعتني قبل أن أعبر عن أسفي وندمي قائلة: لست المسؤول عن ذلك، لقد أراد أدريان أن يُحملك ذنباً يتخطى طاقتك لكي تستسلم.

فكيف نجوت إذاً؟

إنه نورك الذي سار عبر عروقي سابقاً، فأنت تحمل داخلك قوة هائلة تحتاج منك أن توجهها وتطلقها نحو الشر.

كيف سأوجهها وأنا لم أفهم ماهيتها بعد؟

هي مرآة أفكارك حين تبقيها داخلك، داخل حزنك وذكرياتك ستعمل على استهلاك طاقتك وإضعافك

وثق بي لقد رأيت ما هي قادرة على فعله. كانت تتكلم بثقة عمياء مع شغف كبير لخوض هذه المعركة والانتقام.

لننطلق إذاً ونبحث عن هذا اللعين!

اشتعل الحماس داخلي، لا أدري إن كان هذا تأثير كلامها أم أنها الطاقة في عروقي التي عادت لتشتعل نوراً، حتى الدماء والجروح التي نزفت على وجهي اختفت تماماً كأنني ولدت من جديد دون خطايا ودون ألم.

شعر أدريان بقوتي بعد أن يئس من محاولة إخضاعي، فأطلق كل ما لديه من كيانات شريرة في محاولة أخيرة للتخلص مني نهائياً، واستجابت له فعلاً وبدأت تهاجمني من جميع الجهات.

صار النور داخل عروقي أداة للقتل يحطم كل الشياطين بفكوكها الحادة المتعطشة للدماء، فتصبح

رماداً ما أن ألتقطها بين يدي وأخنقها وأمزقها لكن أعدادها الكبيرة أجلت حسم المعركة.

ابتعد!

قالت مها قبل أن تنطلق من يدها شعلة مضيئة تفتك بأحد الشياطين الذي حاول التسلل من خلفي، لقد نقلت القوة لها أيضاً لتصبح سلاحاً ضد الشر فابتسمت وتابعت القتال بكل حماس.

إنها كثيرة ومن المستحيل القضاء عليها جميعاً، ما رأيك بالعودة إلى مكان سقوطنا الأول لعلنا نجد هناك منفذاً من هذا المكان المشؤوم؟

وبالفعل تراجعنا ونحن نقتل ما استطعنا من تلك الشياطين وأدريان خلفنا يفتح أبواباً عديدة ليخرج منها المزيد من الشر، بعد مسير قليل داخل الممر المظلم وصلنا بالفعل إلى نقطة البداية محاصرين بالشر لكن لا يوجد أي منفذ هنا للخروج.

ما العمل الآن؟

قلت وأنا أبعد ما استطعت من الشياطين لأفسح المجال لمها بالبحث عن مخرج، فذهبت تتفحص الجدران على أمل إيجاد أي دليل يرشدنا للمغادرة.

حاولي الإسراع إنهم يتزايدون وبدأت أشعر بالتعب. أثرت بي تلك الوحوش وأتعبتني لكثرتها بينما مها التي توقفت فجأة عن محاولة البحث كانت تحاول التفكير بشيء ما، لذا لم أشأ أن أقاطعها وانطلقت بكل قوة لإبعاد تلك المخلوقات قدر المستطاع ولم أعد أرى أدريان الذي اعتقدت أنه بقي في الخلف يطلق جميع أحقاده وشروره نحونا.

هات يدك وركز على دمج نورينا لنصبح أقوى. ثم أطلقت وابلاً من الشعاع نحو الأعلى مرتطماً بالسقف الذي اهتز بقوة ثم توسعت فتحة كبيرة داخله وصار الشعاع مثل حبل نجاة سحبنا من أسفل هذا الجحيم إلى الغرفة مجدداً ثم انغلقت الفتحة.

تنفسنا الصعداء وارتمينا على الأرض منهكين نحاول

استيعاب ما يجري فهناك الكثير من الأسئلة والقليل القليل من الأجوبة.

هل أنت بخير؟

نعم أظن ذلك، لكن هل انتهى الأمر؟

ما دام أدريان طليقاً فلا أظنه انتهى.

كان الظلام في الخارج شديداً، والهواء البارد يقتنص الفرصة للسع أجسادنا المتعبة، استجمعت ما بقي لدي من طاقة وانطلقت إلى المطبخ بعد أن ساعدت مها على الاستلقاء على السرير، لاحظت أن طبقة من الغبار تغطي الأثاث والأواني وكأن المنزل كان مهجوراً، لكننا لم نغادره قط ودماغي المتعب قرر تجاهل التفكير في الأمر تماماً.

وضعت إبريق الشاي على النار وشردت محاولاً تذكر الحادث، وانهالت علي صور السيارة المحطمة والناس يصرخون طلباً للنجدة، لكن كل شيء يصبح بعدها معتماً ولا خيط لأمسك طرفه فيقودني لمعرفة مصير أبي.

اعترفت لنفسي بصوت عالي أني في باطني لم أصدق الإشاعات التي قيلت لي عن موته، فأنا لم أذهب برفقة أمي لزيارة المقبرة ولو لمرة واحدة، كما أن الناس كانوا يطلقون عليها صفات لم أفهمها في صغري، فمرة يقولون زوجة الخائن ومرة زوجة الهارب والأغلبية الأخرى تحيد عن طريقنا في الحي، لذا جعلتني أمي ألزم المنزل منذ ذاك الوقت فكانت تحضر لي الكتب والدفاتر للدراسة دون اضطراري

للخروج مبررة ذلك بقولها إن هناك عدوى تتفشى في المدرسة وفي الحي ويجب علي الحذر لئلا ألتقطها، وهي أتقنت دورها أيضاً فكانت لا تخرج لجلب حاجيات المنزل سوى في المساء حين تخف حركة الناس في الشارع وتغيب لوقت طويل قبل أن تعود، رغم أن المحلات التجارية قريبة منا.

عشت طفولتي مع أمي في سجن آخر لكنه كان إرادياً، وقد أصبت بالمرض كثيراً لأنني لم أكن أرى الشمس سوى لدقائق قليلة صباحاً وأنا ألاحق أشعتها عبر نافذة غرفتي قبل أن تختفي خلف ظلال النخيل والبيوت المرتفعة المواجهة لمنزلنا، ومع كل توعك مررت به كنت أعتقد أن ذلك الوباء أصابني وسأموت قريباً فأهرع بشكل هستيري إلى حضن أمي طالباً تناول الدواء بجسد يرتجف من الخوف وصدر يختنق بشدة، واختلط الأمر علي فلم أميز رائحة الخوف عن رائحة الغاز المطفأ وقد انسكب عليه الماء المغلي لأعود للواقع الذي فرض نفسه بقوة مشتتاً كل الذكريات التي سعدت بعودة بعضها من الماضي.

خذي يا عزيزتي.

تناولت من يدي فنجان الشاي وجلست قربها دون أن نتفوه بأي كلمة أخرى، كنا ننتظر انتهاء هذا اليوم المشؤوم فقط.

على خصر الصباح الموشح بخيوط الشمس الأولى تعلقت قطرات الندى ونقشت على أوراق الليمون اليانعة تمائم تبعد عيون الشر عني، متمعناً في تفاصيل الحي كان سكون الطريق يقطعه بين الحين والآخر صوت سيارة عابرة أو سعال أحد كبار السن الذي اعتاد الرياضة الصباحية ليحصن جسده من الموت المبكر وكأنه يستطيع تأجيل القدر.

ترقد مها على السرير غير مبالية بالأمس رغم أنني شعرت بحركتها وهي تطالعني واقفاً بجانب النافذة أقرأ طالع الصباح، وتأخذ وقتها قبل النهوض أخيراً كما عهدتها سيدة اللحظات الأولى للفرح.

صباح الخير يا عزيزتي، سأعد القهوة وأنتظرك في المطبخ.

ترددت قليلاً قبل أن تشير لي بابتسامة عريضة على الموافقة، ثم خرجت لأكسر حاجز الصمت بطحن القليل من البن، وكان صوت المطحنة قوياً يشبه صدى الوحوش العالقة في الجحيم وفي رأسي، لكنني تجاهلته وتابعت السحق لأحصل على القوام المطلوب لمزاجي، بينما مها التي خرجت من الغرفة قادتها عيناها الناعستان إلى صنبور الماء لتصحو من سبات الليلة الماضية.

ما زال النعاس يأخذ حصته مني. أرى ذلك، لكن أعددت لكِ فنجاناً مركزاً سيكون كفيلاً بإعادة نشاطك.

جلسنا نحتسي القهوة وهي قربي تضع رأسها على كتفي كأنها تنتظر اللحظة المناسبة لافتتاح الحديث ووضع الخطط القادمة لحياتنا، فأخذت عبء هذه المهمة عنها وقلت: أنا جاهز للانتقال من الحي، ولو أنني غير مقتنع تماماً أن هذه الخطوة ستحل مشكلاتنا لكن علينا أن نفعل شيئاً ما.

وأنا أيضاً جاهزة، يجب أن نبتعد عن بؤرة الشر هذه. كانت جرعة الكافيين تنفذ للقلب وتفتح آفاقاً أمامي

للتفكير في كل الأمور العالقة هنا قبل أن أجرب حظي في الهروب من الحي.

من أين أتى كل هذا الغبار؟!

قالت مها بعد أن لاحظت أخيراً كم الغبار الذي تراكم على الطاولة وباقي الأثاث، فانطلقت لأفتح باب المنزل وأتفقد ما يحدث في الخارج لعل عاصفة رملية هبت البارحة، لكن قبل وصولي تنبهت لوجود ظرف أبيض على الأرض بجانب الباب وكان الغبار قد نال منه أيضاً، فتناولته مستغرباً ما الذي أتى به فأنا واثق أنه لم يكن موجوداً البارحة.

تسمرت مكاني وبدت علي معالم الصدمة وأنا أقرأ بسرعة ما جاء في الورقة، لتأتي مها وتشاركني القراءة: لقد فصلوك من العمل أعلم ذلك، ولكن انظري إلى التاريخ! لم تنطق بحرف واحد، بل تركتني وذهبت لتفقد جهازها الخلوي، لم تصدق ما رأت وكأنها تحتاج المزيد من الإثباتات.

كيف ذلك؟!

لا أعلم يا عزيزتي ربما هناك خطأ ما.

لكن الجهاز يشير لذلك أيضاً.

كان قرار الفصل الرسمي ينبئني بأنني تغيبت عن العمل بعد انتهاء إجازاتي المرضية لأسباب غير مبررة قبل 34 يوماً، وإن كان الأمر صحيحاً فهذا يعني أننا استغرقنا أكثر من شهرين داخل تلك الحفرة..

لا أصدق هذا هناك خطأ ما بالتأكيد. وللتحقق من صحة القرار الذي بين يدي كان يجب الاتصال بأحد ما في العمل لكنني لا أملك رقم أي منهم فلم أهتم يوماً بإنشاء صداقة مع زملائي، لذا لا بد لي من الخروج ومتابعة الأمر بنفسي.

كيف استطعنا النجاة كل تلك المدة؟

لا أعلم يا مها لكني سأكتشف ذلك اليوم. ارتديت ملابس العمل وتجهزت بكل ما أوتيت من فضول لتقصي الحقيقة، فتحت الباب وهممت بالخروج وما أن وضعت قدمي خارجاً حتى شعرت بطاقة هائلة تعبر جسدي وتقذفني إلى الداخل، فسقطت على الأرض بقوة بينما هرعت زوجتي إلي مصدومة بما رأته.

ماذا حصل؟

محاولاً التركيز على تلك الطاقة الهائلة، لم يطرأ في ذهني بداية الأمر أي تفسير.

لا أعلم، لكن هناك شيء ما في الخارج منعني من التقدم.

اقتربت مها من الباب وحركت يدها ببطء شديد نحو الخارج لتشعر بالطاقة نفسها التي أحرقت أصابعها وأجبرتها على التراجع إلى الخلف مذعورة.

إنه هو .. ومن غيره

أتقصد أدريان؟

نعم بالتأكيد، يريد حصارنا داخل المنزل ومنعنا من المغادرة.

كان الجو مشحوناً بالخوف والقلق بعد إدراكنا أن ذلك الشر لن يتركنا محاصرين فقط، بل سيحاول

إيذاءنا لذا علينا إيجاد وسيلة للهرب بأي ثمن.

ربما علينا العودة للأسفل...

اقترحت مها تلك الفكرة المجنونة في محاولة للبحث عن أدريان وإنهاء شره، لكنها مجازفة خطرة جداً ولن أغامر بأخذها معي وتعريضها للخطر مرة أخرى.

لا، يستحيل أن نعود إلى ذلك المكان.

لكنه الحل الوحيد هل تستطيع التفكير في مخرج آخر؟

حتى وإن كان كذلك، لن أسلم نفسي لذلك الشيطان.

سأكون معك لندمره معاً.

وإن تكرر ما حصل سابقاً ولم أقدر على إنقاذك؟ تشبثت زوجتي بتلك الفكرة المجنونة بينما كنت رافضاً للمغامرة بشكل قاطع، فقررنا التفكير بحل بديل ولم يكن أمامنا إلا التعاويذ التي طورتها مها بشكل جيد لتلقيها على الشياطين؛ خاصة إن اتحدت قوتها بالنور الذي تعلمت كيف أتحكم به أخيراً فقد نستطيع معاً تدمير ذاك الكيان الظلامي.

عشت كل حياتي داخل السجن، تختلف علي تفاصيل المكان فقط، يجب أن أتخلص من هذا العذاب نهائياً وأحطم كل القيود التي تمنعني من الحياة" تشبثت بهذا الهدف وأنا أفكر بطريقة لإجبار أدريان على الخروج للقائنا، ووصلت مها إلى خطة تفضي بأن تمرر بعض التعاويذ عبر الباب على هيئة ماء مقدس وبالفعل كانت تلك حركتها الأولى التي جعلت جدران

المنزل والنوافذ تهتز بعنف، قبل أن يغلق الباب بقوة كبيرة كادت تكسره أعيدي المحاولة لكن تمسكي بيدي لنمرر بعض النور مع التعاويذ.

كررت المحاولة ونجحت هذه المرة في إجبار أدريان على الخروج، فكان يعبر من خلال الجدران كأنه محبوس داخلها كجزء من ذلك السجن، ولم تتوقف مها عن رش الماء والضغط على يدي بقوة وإلقاء التعاويذ التي زادت جنون أدريان لينقض عليها بوحشية قبل أن أقف بوجهه مطلقاً النور نحوه، الأمر الذي جعله يتراجع للخلف وهو يزمجر غضباً ويدمر الأشياء من حولنا ويقذفها نحونا بقصد الأذية، كان تأثير تلك التعاويذ قوياً لدرجة جعلت شعلة الدخان الأسود المحيطة به تضعف لكنه استمر بالمراوغة قبل أن يعود حبيس الجدار مرة ثانية.

قمنا بتفتيش وتطهير المنزل باحثين عن المكان الذي اختبأ فيه لكن لا أثر له، فقد اختفى تماماً ولم يكن يقوم بأي ردة فعل تجاهنا، نظرنا بعضنا إلى بعض وإلى باب الغرفة المشؤومة عالمين أن لم يعد أمامنا خيار آخر، فدخلنا إلى مصدر الشر لمتابعة البحث

عله يخرج ونواجهه بما أوتينا من قوة، لكن لم أستطع إنقاذ نفسي حين أمسكت الوحوش الصغيرة بقدمي لتسحبني للأسفل مجدداً عبر الثقب الذي أعاد أدريان فتحه بينما تراجعت مها للخلف ونجت من السقوط وبقيت أسمع صوتها تنادي بينما أهوي لجحيم تلك الكائنات.

كان المكان أبرد من السابق والوحوش تقبع في جميع الجهات تنتظر الإشارة للهجوم علي حاولت التوازن واستعادة السيطرة على الموقف لكن لم يتسن لي القيام بأي حركة فقد أعطى أدريان الذي وقف متفرجاً الإشارة للهجوم، وحاولت صد جنون هذا الشر لكن الأعداد كانت مرعبة ولم أستطع مقاومتها، الأحاضر عبرها وأسحب إلى الجدار الذي صار جزءاً مني بطريقة ما.

كان صدى صوت مها تميمةً تبقيني على قيد الحياة بينما تيبست أوصالي ولم أعد أشعر بشيء، ظل الصدى يحارب مع بعض الومضات التي كان تمر عبر الجدران المحيطة وكأن هناك معركة تدار في الخارج، تلك الومضات التي أخذت تشتد أكثر وأكثر معلنةً انتقال القتال إلى الأسفل حتى صوت مها صار جلياً

وقد امتلكت قوة جبارة استطاعت مواجهة كل هذا الرعب.

"لكن كيف تجرأت على النزول مرةً أخرى؟ وهل أجبرها أدريان على ذلك ليكون الظلام حليفه في المعركة؟"

حاولت تخيل مجرى الأمور قبل أن تشتد أكثر وتصبح دائرة القتال اختباراً صعباً على قلبي، وأنا مثبت على الجدار كقطعة من الحجارة الصلبة لا شيء يتحرك بي إلا عيناي اللتان كانتا تشاهدان المعركة كنوع من العقاب، فلا أستطيع تنبيه مها للوحوش المخادعة الكثيرة التي تنهال عليها بمخالبها الحادة محاولة قتلها فتقابلها بالتعاويذ وشرار النور المتصاعد من يديها الذي يجعلها رماداً على الفور.

لن تستطيع الصمود كثيراً يجب أن أفعل شيئاً ما! لا أحتمل بقائي مُحَيَّداً عن صراع خاص بي تورطت به زوجتي التي كدت أخسرها عدة مرات بسببه" لم أنه تساؤلاتي حتى برق نور قادم من الأعلى كتعويذة خارقة حرقت العديد من الوحوش بضربة واحدة، وأضاءت المكان لتظهر ملامح مها المنهكة واضحة

المعالم وهي تحاول مثلي معرفة المقاتل الغريب الذي لم يعرف عن نفسه فوراً، بل استمر في الدفاع عن زوجتي بشكل رائع حتى تراجعت الكيانات المخيفة من رهبة وقوة ضرباته إلى داخل شقوق الجدران.

سأحررك يا جاسم.

كان الصوت مألوفاً للغاية مما حرك داخلي الكثير من المشاعر المتشابكة، إنه صوتها، لكن كيف علمت بما يحدث؟ لم أستطع التعبير عن صدمتي لكنها قرأت ذلك بالتأكيد في عيني وهي تقترب مني وتتلو بعض التعاويذ الخارقة محررة جسدي المتصلب عن الجدار يبدو أنها كانت تعلم حقيقة ما يجري فعلاً كما كانت تخبرني سابقاً، وكيف لقلب الأم ألا يستشعر وجع صغيرها ؟ لكن كيف بلغت هذه الدرجة من المعرفة والقوة لتحارب بهذا الشكل؟

قلت لك إنني سأعلم أن كنت بخطر.

لكن كيف فعلت ذلك؟

أعتذر لأني تركتك تخوض كل هذا الألم وحدك، لكني كنت أحضر نفسي لهذه المعركة منذ فترة طويلة

جسدي وأخذت بالهياج لأقوم بعدها بإطلاق صرخات مدوية ووابل من النور نحو هذا الكيان الشيطاني.

مستسلماً لقوة ضرباتي أبعد أدريان شره عن أمي وزوجتي لتبدأ معركة حاسمة بيني وبينه، اهتزت الأرض بشكل مرعب واختلفت تفاصيل المكان صار أدريان يتلاعب بي ويظهر لي أماكن من طفولتي تجمع أشد أوقات ضعفي وهلعي في محاولة لتشتيتي، ولم تتوقف اللعنات عن الحفر في أعمق آلامي؛ فمرة يظهر لي متقمصاً وجه أبي يجلدني على جذر النخلة، مرةً وأنا معلق على عَتَلة على الجدار في غرفتي ويداي وقدماي مقيدة لتعذيبي ومنعي من الحركة حتى يغمى علي، ومرة يأخذ وجه خالي محاولاً الاعتداء علي في السرير واضعاً يده على فمي كي لا أطلب المساعدة. كل تلك اللعنات والتخيلات أظهرت حقائق تعايشت معها وسامحت عائلتي على ما اقترفته بحق طفولتي فلم تجعلني أضعف، بل زادت قوتي أكثر لأهاجمه بكل ما أوتيت من غضب، فلم يكن من أدريان إلا أن ينقل المعركة إلى الخارج حيث اشتعلت السماء بالبرق والغيم الأسود والأعاصير تلتف حولنا والريح

تعصف من كل جانب، لا أعلم إن كان الأمر حقيقياً لكني سمعت صراخ الناس وصلواتهم في منازلهم، وأشجار النخيل تسقط على الأرض الواحدة تلو الأخرى.

وجه أدريان شره نحوي في أذرع دخانية سوداء هائلة لأتصدى لها بالنور الذي اخترق تلك الأذرع وأسقطته على الأرض للمرة الأولى قبل أن يعود بهجوم أعنف استدعى تدخل أمي ومها اللتين أطلقتا درعاً حولي لحمايتي، لكن سرعة أدريان الكبيرة وتحركاته المفاجئة جعلته يوجه ضرباته باتجاههما ويجبرهما على التراجع.

شعرت بجسدي يتمزق من الداخل وأنا أشاهد أمي ومها تقاتلان الكيان الشرير بكل ما أوتيتا من عزيمة وحب، وكنت على يقين أن التضحية ستكون ثمينة لإيقاف أدريان ولن أسمح له بأن يمسهما بسوء، لذا استجمعت تلك الطاقة الهائلة داخلي وأعدت توجيهها عبر صرخة مدمرة جعلت الظلام يتلاشى في لحظة، لم أدرك في البداية ما حصل لكن الكيان الشرير انفجر واختفى كقطع من الزجاج المحطم

بدأت تهطل على الأرض ثم تتبخر مثل دخان أسود، اختفت أيضاً أرض المعركة لتعود الحقيقة المطلقة إلى داخل جدران الغرفة وكأن شيئاً لم يكن بينما مها وأمي تختبئان خلف السرير في انتظار أن يهدأ مطر الشظايا السوداء وقد بدا عليهما الحزن الشديد لسبب أجهله.

هدأ المكان أخيراً لكنني لا أشعر بجسدي، وكل ما يظهر لي خيوط من النور المتطاير وظلال بيضاء تحيط بي حاولت أن أشاركهما فرحة الخاتمة واختفاء أدريان، لكن لم أستطع التحرك من مكاني مطلقاً حتى أن هيئتي الجديدة تلاشت مع خيوط الشمس التي كانت تخترق الغرفة عبر الغيوم، وبعد قليل بدأت أسمع صوتهما تناديانني دون جدوى وتبحثان عني في أرجاء المنزل، ثم انهارت مها على الأرض وهي تنوح بشكل هستيري لتشاركها أمي لاحقاً الصراخ وكأنهما استوعبتا أخيراً حقيقة ما جرى.

لست ميتاً لكنني لا أستطيع إخبارهما بذلك وجسدي قطع من النور المتناثر في المكان تتموج عبر أثير الغرفة وتنعكس على المرآة وزجاج النافذة دون أن يراها أحد غيري، لقد اكتملت الأحجية بنتيجة غير

متوقعة فكنت أنا قطعتها المفقودة منذ البداية، لكن يبقى السؤال أين اختفى جسدي الحقيقي في لحظة الانفجار تلك؟

بقي طيفي سجين المكان، أنساب مع كل الأضواء التي تشتعل داخل حدود المنزل فقط جربت الخروج أكثر من مرة فلم أقدر وكأنني جزء لا يتجزأ من الجدران والنوافذ والأبواب، لا يد لي بالبقاء سجيناً فهناك ما يقيدني ويمنعني من المغادرة وتخفيف هذا البؤس، كيف لي أن أبقى هنا أشاهد أحب الناس إلي بقلب مكسور دون أن أخفف عنهم وطأة هذا الفراق؟

لم يكن أمامي إلا الانتظار والمراقبة علي أجد حلاً يفتح الآفاق أمامي لأبحث عما يبقيني أسيراً حتى بعد موت جسدي، وتابعت الناس الذين قدموا لتقديم واجب العزاء بي حيث تم إخبارهم أنني تعرضت لحادث خارج البلاد.

ظل الناس يتوافدون لتخفيف حجم المأساة التي أصابت مها وأمي، وفي مساء اليوم الثالث بينما كنت قريباً من النافذة أراقب أضواء السيارات العابرة مسترسلاً في هدوء اللحظات دخل المنزل رجل بان

عليه الإرهاق رغم هيبته وخشونة رجولته الواضحة التي جعلت أمي تجفل عند رؤيته لدرجة أني شعرت بالطاقة المحيطة بها التي تعبر عن الصدمة الكبيرة لوجوده، قال بصوته الأجش وعينيه الغارقتين بالدموع قاطعاً على الجميع أحاديثهم المشتركة: أنا والد جاسم، وأنا نادم، نادم جداً..

ثم انهار على الباب فاقداً للوعي، فتركض أمي لاحتضانه ومحاولة إيقاظه تاركاً جميع من كان يظنه ميتاً مصدوماً بقدومه، حتى مها وقفت عاجزة عن الكلام وهي تعلم حقيقته المؤلمة، تلك الحقيقة التي أودت بي إلى النهاية.

تمت

الجزء الأول